

الباب الثالث

في

الحياة العقلية

تتمهيد

يتناول هذا الباب ما يمكن ان يكون فيه دلالة ومقياس على قوى العرب العقلية في بيئة النبي (ص) وعصره كاللغة وفنونها و كلقراءة والكتابة وانتشارها، وكالعلوم والمعارف ومدى ما كان للعرب من مشاركة فيها، وما كان عند العرب من سحر و كهانة وما يمكن ان يتدلا عليه من اطوار العقل العربي، وما كان من مدى إلمام العرب باللغات الاجنبية، وكوقف المشافقة والمعارضة التي وقفها المشركون من الرسالة في مكة ويثرب ومدى ما تدل عليه من قوى عقلية.

ويتألف الباب من ثلاثة فصول:

الاول : اللغة القرآنية مقياس لقوى العرب العقلية .

الثاني : العلوم والمعارف ووسائلها .

الثالث : مواقف المشافقة ودلالاتها على قوى العرب العقلية .

الفصل الثاني

اللغة القرآنية مقياس لقوى العرب العقلية

اللغة مقياس صحيح لقوى الأمة العقلية — اللغة القرآنية وتمثيلها للغة بيئة النبي (ص) وعصره — تحليلات وتعليقات واستدلالات قرآنية في صدد صحة ذلك — سمو طبقة القرآن ودلالاتها — بحوث وتعليقات اضافية في صدد ذلك — فنون اللغة — الشعر ومدى مفهومه — مدى نسبة الشعر الى النبي (ص) ونفيها — خطورة الشعر والشعراء — السجع والسجع القرآني — تعليقات وتنبهات في صدد السجع وخطورته — الترسل والترسل القرآني — تنبيهات على البراعة الاسلوبية في استعمال السجع والمرسل — الأمثال والأمثال القرآنية — القصة والقصص القرآني — النحو والصرف والاشتقاق ودلالة نضوجها التام — فنون الكلام القرآني الاخرى ودلالاتها — اللغة الادبية واللغة التخاطبية وميزتها العجيبة التي تتحدان فيها .

— ١ —

مما لامراء فيه أن لغة أمة ما في احد عصورها هي من مقاييس قراها العقلية في ذلك العصر ؛ لأن اللغة وسيلة للتعبير عما يكون في ذهن الانسان من افكار ومعان ، وما يشعر به من حاجات مختلفة ؛ فاذا كانت أمة ما في احد عصورها ضعيفة المادة والأداء ، ضيقة المجال كان ذلك برهاناً على ضيق افق تلك الأمة في ذلك العصر وضعف معارفها وتجاربها وقواها العقلية ، وعلى العكس من ذلك اذا كانت غزيرة المادة دقيقة الاداء ، تتسع لشتى الافكار والمعاني ، غنية في المفردات فإن ذلك يكون دليلاً على نشاط الذهن وسعة الافق ، وقوة الافكار والتجارب والحيوية العقلية ، فنحن على صواب اذا اتخذنا اللغة مقياساً من مقاييس القوى

المقايمة للعرب ، او مظهراً من مظاهر حياثهم العقلية في عصر النبي (ص) وبيئته .
 وايس في يدنا صورة للغة ذلك العصر والبيئة اصدق ولا أوثق ولا أغزر
 مادة من لغة القرآن . فهو من جهة فوق كل مظنة او شبهة في أنه وصل اليها كما
 بلغه النبي (ص) ، وهو من جهة ثانية الكلام الوحيد الذي وصل اليها مدوناً
 وسليماً من كل شائبة وشك من ذلك العصر ؛ في حين اننا لانستطيع ان نقول هذا
 القول بهذه القوة والجزم عن اي كلام مما روي من كلام ذلك العصر والبيئة ؛ لانه
 لم يدون الا بعد مدة طويلة ، وقد ظل طول هذه المدة تتناقله الالسن ، وعرضة
 للتبديل والتحريف والزيادة والنقص بل والتلفيق والصنع ، والأهواء والأغراض .
 وكون لغة القرآن تمثل لغة عصر النبي (ص) وبيئته بنوع خاص ، مما لا يحتمل
 شكاً ولا كلاماً في ما نعتقد ، وقد أكدنا هذا في فصل سابق ، واستعرضنا في
 سياق الآيات القرآنية العديدة التي فيها الدلالة والدعامة الصريحان القويتان ،
 وانتهينا استناداً الى النصوص القرآنية الى تقرير كون لغة القرآن هي من حيث
 المفردات والمصطلحات والتراكيب والاستعارات والتشابيه هي ما كان مألوفاً
 ومفهوماً ومستعملاً من حيث الاجمال - وبقطع النظر عن الكثرة والقلة والسعة
 والضيق - في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة بنوع خاص وسائر العرب
 بوجه عام .

- ٢ -

وقد أعدنا استعمال جملة « من حيث الاجمال » هنا كما استعملناها هناك لنقول
 بالاضافة الى ما قلناه هناك انه في كل بيئة - حتى في ارقاها التي يكون التعاميم فيها
 قد رُسرت وسائله تسييراً واسعاً - لابد من ان يوجد تفاوت بين افرادها في قوة
 الفهم والتعبير باللغة ، وحسن الأداء والتأني ، ودقة الاستعمال ، وعمق النفوذ ،
 وحسن السبك والاسلوب ، وغزارة المادة ، وان هذا التفاوت هو مظهر من
 مظاهر التفاوت الطبيعي في قوة العقل وحدة الذكاء ، وسعة الاطلاع والتجارب
 وغزارة العلم والمعرفة ، وأننا لنجد من أجل هذا في الأمة الواحدة او في مجتمعاتها
 من لا يكون في واعيته اكثر من التي كلمة يستعملها في حاجاته والتعبير عن ما في

لنفسه ، بينما نجد من يكون لديه عشرة آلاف كلمة او اكثر يستعملها كذلك في حاجاته والتعبير عما في نفسه ؛ ومع ذلك تصكون اللغة بمجموعها من مفردات وتراكيب ومصطلحات مهما تفاوت الافراد في ما بينهم من النصيب فيها هي لغة مجموع الامة من حيث الاجمال . ومن الطبيعي ان ينطبق هذا على الامة العربية في عصر النبي (ص) وبعثته ايضاً . واذا كان من المسلم به ان طبقة لغة القرآن السامية لا يمكن أن تمثل من حيث الاستعمال والاسلوب وسعة التناول والأداء اكثرية الامة العربية في ذلك العصر ، وان من المعقول انها من هذه الناحية لا تمثل إلا اقليتها او فئة محدودة منها فان من الحق ان يقال إنها من حيث فهمها ومداهات تمثل اكثرية الامة ، وان قول بعض المؤلفين انها كانت فوق مستوى عقول الناس ومتناولهم ومدركاتهم وخاصة من حيث الفهم لا يتفق مع الوقائع من جهة ولا مع طبيعة مهمة الرسول (ص) وهي الاتصال بجميع الناس ومختلف فئاتهم ودرجاتهم ومخاطبتهم بلغة القرآن التي كانت حتماً هي لغة النبي (ص) وتلاوة القرآن عليهم من جهة اخرى ، وهي الطبيعة التي يمكن استشفافها من آيات قرآنية كثيرة نورد منها الأمثلة التالية :

١ — ... كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ... هود ١

٢ — ... وأزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ... النحل ٤٤

٣ — ... وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ... الاسراء ١٠٦

٤ — الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . قِيماً لينذر بأساً

شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً... الكهف ١-٢

وفي القرآن آيات كثيرة جداً حكمت اقوال المشركين في القرآن ولحاجتهم

تدل دلالة صريحة على انهم فهموه كل الفهم وجدلوا فيه ، واقوالهم المحكية مندوحة

في الاسلوب القرآني اندماجاً تاماً ؛ حتى على فرض ان يكون القرآن قد حكى

مآل اقوالهم بأسلوبه فان هذا لا ينقض دعوى كون اقوالهم في مفرداتها واساليبها

مماثلة لمفردات وأساليب القرآن ، ومثل هذا يقال بالنسبة لآيات كثيرة حكمت اقوال ومواقف المسلمين والكتابيين من القرآن مما لا يكاد يحصى كثرةً ويكاد يكون في كل سورة من السور الطويلة والمتوسطة ، وما سبق في الفصول السابقة امثلة كثيرة له ، وما يجعلنا نكتفي بما نورد هنا من امثلة قليلة اخرى :

١ — واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون... الاعراف ٢٠٤

٢ — واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا

إلا أساطير الاولين ... الانفال ٣١

٣ — واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما

الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ... التوبة ١٢٤

٤ — وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ...

النحل ٤٤

٥ — وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى

ورحمة لقوم يؤمنون ... النحل ٦٤

٦ — وقرآننا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً... الاسراء ١٠٦

٧ — طاهها . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ...

طاهها ١-٣

٨ — وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه عليه قوم آخرون

فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا اساطير الاولين اكتبها في نعلى عليه بكرة

وأصيلاً ... الفرقان ٥٥

٩ — وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لتثبت به

فؤادك ورتلناه ترتيلاً ... الفرقان ٣٣

١٠ — وان أتوا القرآن فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما

أنا من المنذرين ... النمل ٩٢

١١ — وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ...

فصلت ٢٦

١٢ - ... وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً أينذر الذين ظالموا وبشروا

الاحقاف ١٢

للمحسنين ...

ولقد كان اتصال النبي (ص) بطبيعة الحال بجميع الطبقات من حضر وبدو مكين وغير مكين وحجازيين وغير حجازيين ، وأميين وكتابين ، بل وعرب اقحاح واجانب لا يعرفون العربية الا ناماً او بالتعلم ، وكان اول ما يخاطبهم به ويتلوه عليهم هو آيات القرآن ، ولا يكون هذا معقولاً لو لم تكن لغة القرآن مفهومة من هذه الفئات والطبقات المتفاوتة والمتنوعة .

وليس فيما نرى في وجود طبقة من اهل بيعة النبي (ص) وعصره تفهم لغة القرآن فيها عميقاً وتستعملها - ولو كانت قاصرة على النيرين في المدن - مع فهم اكثر الطبقات والفئات الاخرى لها فيها اجمالاً وهو ما يتبادر الى الذهن في هذا الموضوع ، تناقض او ثغرة يورد عايننا منها ان طبقة لغة القرآن لا تشمل بيعة النبي (ص) وعصره ذلك التثليل العقلي الذي يريد ان تقرره . فان هذا هو الشأن العام في كل امة وفي اى عصر من عصورها . واللغة المدونة لامة او عصر هي التي تصل عادة الى العصور التالية وتكون الوسيلة لقياس قواها العقلية من هذه الناحية دون ما اعتراض او تناقض . وهذا المعنى يكون اقوى بالنسبة لعصر النبي (ص) وبيئته الذين لم يكن التعاليم فيها كافيين لاجاد طبقة خاصة من النباه والنيرين بوسائل ثقافية منظمة واصطناعية ؛ حيث تكون دعوى سعة نطاق طبقة المتكلمين والفاهمين لا يصل الى الاجيال التالية من لغتها المدونة انصع حجة واشد سنداً .

- ١٣ -

هذا ؛ ولقد كتب العلماء والفضلاء والادباء واللغويون قديماً وحديثاً عن الطبقة السامية التي عليها لغة القرآن من قوة البيان ، وروعة الاسلوب ، وبلاغة التعبير ، ونفوذ المعنى ، ودقة الاداء ، ونصاعة الحجج ، وسعة المتناول ، وغزارة المادة وفنونها مالا مزيد عليه إلا ان نقول ان كل ذلك يصح ان يعتبر مصوراً الناحية من النواحي العقلية العربية في بيعة النبي (ص) وعصره ، ومظهراً من مظاهر حياتها العقلية كما اعتبرنا ما جاء فيه مصوراً لحياتهم المادية والمعاشية . فبيئة في عصر

تصل مادة التعبير عما في ذهنها من معانٍ وحاجات ، وما يدور في رأسها من أفكار بهذه اللغة القوية في بيانها ، الرائعة في أسلوبها ، البليغة في تعبيرها ، النافذة في معانيها ، الدقيقة في ادائها ، الناصحة في حجتها ، الواسعة في متناولها ، الغزيرة في مادتها وفنونها لا يمكن إلا ان تكون من حيث الاجمال على حظ غير يسير من رقي العقل ، وحدة الذكاء ، واضطراب الذهن ونشاطه ، واتساع الأفق والتجربة والمعرفة .

ولقد يقول قائل إن القرآن كلام الله ، وأنه لا يصح ان تقاس به قوى العرب العقلية ، وأنه قد تحدى الكفار بأن يأتوا بحديث او سورة او سور من مثله فعجزوا كما جاء في الآيات المكية التالية :

١ — أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ...
يونس ٣٨

٢ — أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ...
هود ١٣

٣ — قل أئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ...
الاسراء ٨٨

٤ — أم يقولون نقول له بل لا يومنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين
الطور ٣٣ — ٣٤

غير اننا نقول ان هذا التحدى والعجز عن الاستجابة اليه لا يتعارضان مع ما قررناه من كون لغة القرآن بمادتها ومفرداتها وتراكيبها هي لغة عصر النبي (ص) وببئنه ، وانها كانت اللغة المفهومة المألوفة من الناس على اختلاف طبقاتهم بوجه عام ، واللغة المفهومة المألوفة والمستعملة في الحديث والكتابة من الطبقة النيرة بوجه خاص مما يسنده تقارير القرآن الصريحة التي استعرضناها قبل .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان الناس يسمعون الشاعر المفاق ، والخطيب المصقع ، ويقرأون الكتاب العبقري فيفهمون كلامهم كل الفهم وخاصة الطبقة المثقفة منهم ، وينفذون الى دقائق ما يسمعون ويقرأون ، دون أن يرد بأن ما يقرأون

ويسمعون هو غير لغتهم او غير طبقة لغتهم ، ودون ان يخرجها إبداع الشاعر والخطيب والكاتب في الأسلوب عن طبقتهم اللغوية . وامتيازهم انما يكون في إبداع الأسلوب الذي يقفون منه على روعة وقوة وسمو حديث له حلاوة وطلاوة تجعلان لاصحابه تلك الميزة الإبداعية التي يتميزون بها والتي يعجز الناس عن الاتيان بمثلا لله ولكتابه المشل الأعلى ؛ على ان هذا لا يعني في حال انتطاءً بين طبقة هؤلاء وبين طبقة لغة البيئة الأدبية الراقية مفردات ومادة وتركيب وقواعد الخ الخ ؛ والالكان من المتعذر ان تفهم الوحدة اللغوية في بيئة من البيئات فهماً صحيحاً . والواقع يؤيد هذا ، حيث يوجد دائماً تقارب ما في الأسلوب والاداء والروعة في كتابة وخطابة وشعر عصر من العصور ولا سيما الطبقة المتفوقة ، ولا يندر ان يأتي اكثر من واحد بأسلوب فيه روعة وسمو وإبداع ، ونعتقد ان هذا ينسحب على لغة أهل عصر النبي وبيئته لانه ظاهرة طبيعية .

علم اننا نرى من ناحية اخرى ان التحدي الذي تحدى به الكفار هو لما في القرآن من روحانية وصدق لمجة واستقامة دعوى ، ونصاعة حجة ومضامين وروعة نظم معاً وليس لمادته ومفرداته اللغوية وفنونه اللفظية والصرفية والقاعدية لذاتها . وبهذا يستقيم الأمر ويتسق المدى القرآني في تقرير عروبة لغة القرآن ، وكونها لغة ولسان العرب ولسان النبي (ص) وقومه ، وفي تحدي الكافرين في آن واحد . وفي النصوص القرآنية ما يسند بقوة هذه التوجيه الذي لم ننفرده به . فمن جهة قد جاء قبل آيات التحدي او بعدها آيات من مثل ذلك كما ترى في ما يلي .

- ١ — ... وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ... يونس ٣٧
- ٢ — ... بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله (١) كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ... يونس ٣٩
- ٣ — فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ... هود ١٤

(١) لم يظهر بعد تحقيق ما وعد به وأشار إليه فتمجلوا بالكذب .

٤ - ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا
كفوراً ...

٥ - فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يتولون شاعر ترتبص
به ريب المنون . قل تربصوا فأني معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم
هم قوم طاغون ...

ومن جهة قد جاء في سورة الانعام والانفال آيتان هما :

١ - ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن
قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إزاء الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا
أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير
الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ...

٢ - وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا
أساطير الأولين (١) ...

حيث تلها ان من أعل بيثة النبي (ص) من ادعى القدرة على حكاية القرآن؛
ومع أن عجزهم عن ذلك لا ريب فيه فانهم لم يكونوا يبدعوا هذا إلا لكونهم
رأوا أن القرآن في مادته وتراكيبه وفنونه اللفظية إنما هو مثل تراكيبهم ومادتهم
وفنونهم اللفظية ، وأن هذا في متناولهم ، وغفلوا عن تلك الروحانية والبهجة
الصادقة ، والدعوة المستقيمة ، والحجة الناصحة ، والدعوة الحق فتجدهم الله بأن
يأتوا بمثله من هذه النواحي .

واعل في تكرار حكاية نسبتهم افتراء القرآن إلى النبي (ص) ما يدخل في
هذا المعنى على ما هو المتبادر .

(١) في ابن هشام ج ٦ ص ٣٢ ان النضر بن الحرث كان إذا جلس رسول
الله (ص) بمحل دعا فيه إلى الله تعالى وتلا القرآن وحذر مما أصاب الأيم الحالية
خافه في مجالسه فحدثهم عن رستم الشديد وعن اسفنديار وملك فارس ثم يقول
والله ما محمد بأحسن حديثاً مني وما حديثه إلا أساطير الأولين أكتبها كما أكتبها .

على أننا نعرف أن بعض الذين يقولون أن التحدي إنما كان للتراكيب والمادة والاسلوب والنظم يقولون بنظرية الصرف ، أي أن الله قد صرف الكافرين عن الايمان بمثله من هذه النواحي فجزوا مع أنه من جنس لغتهم . وفي هذا القول اعتراف كما هو واضح بأن لغة القرآن في مادته وأساوبه ونظمه وفنونه اللغوية كان مما يدخل في متناول العرب الايمان بمثله لو لم يصرفهم الله عن ذلك ؛ وقد قالوا هذا لانه لم يسعهم أن يدعوا بأن لغة القرآن غير لغة أهل بيثة النبي (ص) وعصره في مادتها اللغوية وفنونها اللفظية . وفي هذا تأييد لوجهة نظرنا من حيث الاساس بقطع النظر عما إذا كان يستقيم القول بأن الله قد صرف العرب عن شيء تحداهم فيه ، إذا تكون النتيجة أنه لو لم يصرفهم لا أتوا بمثله...



وفي آيات القرآن وفي أساليبه دلائل على ما كانت عليه اللغة العربية في عصر النبي (ص) من فنون يمكن أن تكون متايبس على قوى العرب العاقية ونشاطهم الذهني وذوقهم الفني ايضاً .
من هذه الفنون « الشعر » ، فقد أشير إلى الشعر والشعراء في عدة آيات كما ترى .

- ١ — بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون ... الانبياء ٥
- ٢ — والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظالموا ... الشعراء ٢٢٤ — ٢٢٧
- ٣ — وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ... ياسين ٦٩
- ٤ — ويقولون أننا لتاركووا آلهتنا لشاعر مجنون . بل جاء بالحق وصدق المرسلين ... الصافات ٣٦ — ٣٧
- ٥ — أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فاني معكم من المتربصين ... الطور ٣٥ — ٣٦
- ٦ — وما هو بقول شاعر قايلاً ما تؤمنون ... الحاقة ١٤

وإذا كان قرص العرب في عصر النبي (ص) وبيئته للشعر من البدائه التي لا تحتاج إلى تقرير فإن هناك أموراً مهمة يصح أن تضاف إلى هذه البديهة في هذا المقام ؛ منها أن شعر العرب في ذلك العصر والبيئة لا بد من أنه كان متساوقاً في سمو طبقته وبلاغته وروعته مع لغة القرآن ؛ وذلك ما يدل عليه نسبة العرب الشعر والشاعرية إلى النبي (ص) وهم يسمعونه يتلو آيات القرآن وروايعه أكثر مما يدل عليه نماذج الشعر المروية التي قد تحمل التوقف كثيراً أو قليلاً من وجهة صحة النسبة . وأن الأمة التي تصل قوة الشعاعية والشعراء فيها في عصر من عصورها إلى طبقة من السمو والقوة تتساوق مع طبقة سمو القرآن وقوتها وروعته لتتم عن رقي في إحساسها ، وفرران في عواطفها ، وقوة في خيالها ومشاعرها إلى درجة رفيعة .

ومنها ما يحسن التماثل فيه عن السبب الذي جعل العرب ينسبون الشعاعية إلى النبي (ص) . فالقرآن لا يحتوي شعراً منظوماً يتفق مع أنماط الشعر العربي المنظوم وأساسه البيت المؤلف من شطرين متوازيين ، وإذا كان البيت من قصيدة فتلازم وحدة النافية في أواخر كل بيت منها . فهل كان العرب يعبرون عن الكلام البليغ الذي يحتوي معاني رائعة أو شعرية بكونه شعراً ولو لم يكن موزوناً ومقفى ؟ أو هل كانوا يطلقون تعبير الشعر حتى يتناول الكلام المسجوع بدون وزن أو المقفى بدون سجع أيضاً بالإضافة إلى إطلاقه على المقفى الموزون . فأنه إذا لم يكن في القرآن كلام موزون ومقفى يصح أن ينال عليه اسم الشعر كما عرفه علماء العروض ففيه كثير من الآيات بل السور ما جاء بأسلوب مسجع أو أسلوب مقفى ، بل وفيه ما يكاد يكون موزوناً ومقفى بعض الشيء ، وفيه ما يشبه الرجز كذلك ولو لم تكن الجملة في كل من النوعين مؤلفة من شطرين مترابطين كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غرى . وما ينطق عن الهوى .
 إن هو إلا وحي يوحى . عامه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالافق الأعلى . ثم دنى فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى .

ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ... النجم ١ - ١٢

٢ - يا أيها المدثر . قم فأندر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز
فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر . فاذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ
يوم عسير . على الكافرين غير يسير . ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له
مالاً ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه
كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم
قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا
إلا سحر يوثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصاياه سقر . وما أدراك ما سقر .
لا تبق ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر ... المدثر ١ - ٣٠

٣ - والشمس وضحاها . والقمر إذا نلاها . والنهار إذا جلاها . والليل
إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والارض وما طحاها . ونفس وما سواها .
فأنظما فجورها وتوآها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها . كذبت
ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها .
فكذبوه فمقروها . فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقابها ...

الشمس ١ - ١٦

٤ - والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحاً . فأثرن به نغمأ .
فوسطن به حمأ . إن الإنسان لركنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير
لشديد . أفلا يعلم إذا بعث ما في القبور . وحصل ما في الصدور . إن ربهم بهم
يومئذ الخبير ...

العاديات ١ - ١٠

٥ - فيقول هاؤم اقرؤا كتابية . إني ظننت أني ملاق حسابية . فهو في
غيشة راضية . في جنة عالية . فتأوفها دانية . كانوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في
الايام الخالية ...

الحاقة ١٩ - ٢٤

وإن التالي لهذه الايات وأمثالها الكثيرة في القرآن وخاصة المكي ليجد كلاماً
قوياً أخذاً ليس بالشعر المنظوم ولكنه غير بعيد منه ولا غريب عنه ، ويجد فيه شيئاً
مما يقال له ضرورات الشعر في التقديم والتأخير لمساوقة الروي كما هو في آيات

المدثر والعاديات ؛ .بالإضافة إلى ما يجده فيه من التمثيل الرائع والوصف البليغ والمعنى النافذ .

ومع أننا لا نستطيع أن نحيب على ما آسأنا عنه جواباً شافياً مدالاً من القرآن، وأنه لا يسعنا إلا التسليم بأن الشعر المنظوم هو الذي كان مفهوم كلمة الشعر ، وأن الشعراء الناظمين هم الذين كانوا مفهوم كلمة الشعراء بصورة عامة بسبب التواتر الذي بلغ مبلغ اليقين في تقرير هذا أولاً ، وبالقرينة القرآنية القائمة خاصة في آيات سورة الشعراء ثانياً ، فإننا نسوغ لأنفسنا أن العرب ما كانوا ليتولوا عن النبي (ص) أنه شاعر لو لم يروا في القرآن ما يصح أن يطلق عليه اسم الشعر في روعة العظم والاسلوب والقوة الأخاذة المؤثرة في أعماق النفس ، والمحتوية بليغ الأمثال ، ورائع الاستعارات والوصف دون أن يروا ضرورة التقييد بوزن أو بحر ؛ لا سيما هذه الآيات القصيرة التي فيها روى أو قافية ، وفيها نبرة الشعر وأدائه . فإذا صح هذا فإن مدى الشعر وتعريفه عند العرب أو عند الطبقة النيرة - أو المتأدبة منهم إن صح التعبير - منهم على الأقل في عصر النبي (ص) وبيئته كان أوسع من تعريفه المعروف الذي يقوله علماء العروض ؛ وهذا المعنى الأوسع هو الذي يقول به الأدباء الحديثون وهم يقسمون الشعر إلى منظوم ومثور ، ويلاخظون في وصف الشعر جماته وروعته وفننه وجماله معاً . وهكذا يكون أدباء عصر النبي (ص) وبيئته قد نفذوا إلى معنى لم ينفذ إليه إلا بعد قرون طويلة ، ودلوا على ذوق فني ، وروح ملهمة ، ونظرة بعيدة وافق أوسع أيضاً .

- ٥ -

ولا يقتضي من قولنا هذا ان يكون النبي (ص) شاعراً بالفعل . فالقرآن قد رد على الذين قالوا عنه ذلك ، ونفي ان يكون قد تعلم الشعر ، وقرر انه لا ينبغي له ؛ وهذا حق كل الحق وصدق كل الصدق من دون ريب ؛ والروايات متواترة على ان النبي (ص) لم ينظم شعراً وانه كان حينما يتمثل بأحد ابيات الشعر المنظوم لم يكن يأتي به على وزنه وقافيته ، وكان احياناً يكتبني بالإشارة اليه . وانا هذا لا ينبغي ان يكون العرب قد رأوا كما قلنا في القرآن ما هو بسبيل الشعر وانماطه

واستعاراته وتشبيهاته وبلاغته وادائه ونبرته ومطامعه ، فاطلقوا عليه « الشعر »
وقالوا عن النبي (ص) انه شاعر . وبالإضافة الى هذا يمكن أن يقال إن الله تعالى اراد
بهذا النبي والتوكيد اخراج النبي (ص) من طبقة الشعراء الذين كانوا يتصفون بما
وصفتهم آيات الشعراء ايضاً ؛ وتقرير اختصاصه بكرامة النبوة والرسالة ، وانه
ليس ممن يلقون القول على عواهنه ، ويهيمون في كل واد ويقولون مالا يفعلون كما
كان شأن الشعراء ، وان القرآن انما هو ذكر وقرآن مبين ، وان الذين اتبعوه
ليسوا من الغاوين الذين يتبعون الشعراء ويتأثرون بهم . وكل هذا يمكن الاستئناس
به على المعنى الذي نحن بسبيل تقريره . وورود آية « إن هو الا ذكر وقرآن مبين »
في آيات سورة ياسين التي تقرر ان الله لم يعلم النبي الشعر ولا ينبغي له قد يكون دليلاً
او قرينة قوية على صواب ما تقرر . وتزيد الآية التالية لهذه الآية هذا التقرير قوة
حيث جاء نصها « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » .

— ٦ —

هذا ، ومن الممكن الاستدلال بما جاء في القرآن من الجملة على الشعر والشعراء
اولاً على ما كان للشعر والشعراء من خطورة في بيئة النبي (ص) وعصره ، وعلى
أنه كان من اهداف القرآن مقاومة او إضفاء هذه الخطورة ايضاً المكان للقرآن
دون الشعر والنبي (ص) دون الشعراء . وثانياً على ما كان لشعر الكفار من موقف
مؤذ في العهد الاسلامي مستمد من قوة مركز الشعراء وتأثيرهم وخطورتهم .
واستثناء المؤمنين من التشنيع في الآية الاخيرة من سورة الشعراء يدل على ان النبي
(ص) اضطر الى مجارة الظروف والاهتمام بخطر الشعر والشعراء ، وتشجيع
شعراء المسلمين على الرد على شعراء الكفار ومقابلتهم بالمثل ؛ فكان في هذا الاستثناء
حافز ومشجع . وثالثاً على انه كان من عادة الشعراء في ذلك العصر والبيئة الترادد
او الملاحاة او المصارفة فيرسل الشاعر قصيدة في هجو او عتاب او نخر فيقابلة
خصمه عليها بهجو او عتاب او نخر وهكذا دواليك ، وعلى انه كانت من المادة
كذلك ان ينافح الشاعر عن قومه او قبيلته او نخلته ، فيرد شاعر الخصم عليه
مناخاً كذلك عن قومه او قبيلته او نخلته . واستثناء الشعراء المؤمنين الذين

انتصروا أي ردوا على العدوان بمثله قرينة قرآنية على هذه العادات التي تواترت الروايات عنها حتى بلغت مبلغ اليتيم . ورابعاً على ان الشعراء كانوا يخونون منحي المبالغة والتهميج والاثارة دون ان يكونوا في هذا صادقين عن عقيدة واطلاق وجد وحقيقة صادقة .

ولقد كان العرب يعتقدون ان بين الشعراء والجن بعض الملاقات والاتصالات، وكان لهذه العقيدة اثر في نسبة الشعر والشاعرية الى النبي (ص) وهذا ما سوف نشير اليه في الباب الرابع .

— V —

ومن الفنون اللغوية التي يستدل عليها من القرآن « السجع » وهو الكلام المتقن الذي لا يشترط فيه وزن ولا بحر . وفي القرآن جملة سالحة ورائعة منه ، منها الطويل ومنها القصير ننقل منها الامثلة التالية بالاضافة الى ما نقلناه قبل قليل :

١ — اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل امر مستقر . واتقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغني النذر ... القمر ١ — ٥

٢ — الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والتجيم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان ... الرحمن ١ — ٨

٣ — هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً . إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً . الانسان ١ — ٦

٤ — والفجر وميال عشر . والشفع والوتر . والليل اذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر . ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الاوتاد . الذين طغوا

في البلاد ، فأكثرها فيها الفساد ... الفجر ١ - ١٢

٥ - ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل .
وأرسل عليهم طيراً ابابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف ما كول
سورة الفيل .

٦ - إنا عطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شئت لك هو الاء بتر
الكوثر

وفي القرآن اربع سور (١) مسجعة الآيات ، ولآياتها لازمة ، وذلك ان تردد
آية بذاتها فيها انذار او تذكير او تنديد بعد كل آية او جملة آيات . وهو فن آخر
من اساليب الكلام لم ينسج على منواله فيما نعلم (٢) ، ولم نرا احداً من علماء الادب
نوه به مع انه ظاهر الميزة . وهذه امثلة منه :

١ - ولان خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان .
فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيها عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيها من كل
فاكهة زوجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان .

الرحمن ٤٦ - ٥٣

٢ - ألم نهلك الاولين . ثم نتبعهم الآخريين . كذلك نفعل بالمجرمين ، ويل
يومئذ للمكذبين ، ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناهم في قرار مكين . الى قدر معلوم .
فقد رنا فنعهم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين . ألم نجعل الارض ككفاتاً . احياء
وأمواتاً ، وجعلنا فيها رواسي شامخات واستعيناكم ماء فاراتاً . ويل يومئذ للمكذبين .

المرسلات ١٦ - ٢٨



والروايات العربية تقول في صدد السجع انه كان في الغالب كلام الكهان
والعرافين والهواتف في الاحلام . والذي ذكرته الروايات من الكلام المسجع

(١) الشعراء والقمر والرحمن والمرسلات .

(٢) رأينا في بعض خطب الأستاذ أستاذ الدشاشيبي شيء من هذا النحو .

القديم إنما كان جله معزواً الى هذه الطبقة (٣) . ولقد كان العرب كما حكمت آيات القرآن يقولون عن النبي (ص) انه كاهن ، ولعل من جملة اسباب ذلك ما كان يتلوه من الآيات والسور المسجّمة . ويمكن ان يكون في قولهم على هذا التعليل دلائل على صحة أصل الروايات العربية من أن اجوبة الكهان للناس كانت مسجّماً وان كنا نشك في ما يعزى اليهم من المقطعات المسجّمة المدونة والتي لا تخلو من آثار الصنعة والتلفيق رواية ونصاً . اما الصورة الصادقة الصحيحة للسجع ومقطعاته وفنونه فانما هي في القرآن . ومن النماذج التي نقلناها منها وهي قليل من كثير يمكن ان يرى المرء في السجع فناً وذوقاً وجمالاً وقوة أداء وتأثير ، وفي هذا مظهر من مظاهر القوة العقلية العربية لأنه متصل باللغة العربية كما هو واضح .

وفي القرآن ثمان وستون سورة مسجّمة او في مدى ذلك ، منها (٥٧) قصيرة وخمس متوسطة وست طويلة ومعظمها اي (٦٤) منها مكي . ولعل في هذا دليلاً على ما كان للسجع من دولة وتأثير ونفوذ في الاسماع والقلوب في عصر النبي (ص) وبيئته . وقد أردنا من جملة « او في مدى ذلك » السور التي آياتها موزونة بدون قافية ، حيث رأينا انها تدخل في نطاق التسجيع من ناحية مع الاشارة الى أن السور التي ينطبق عليها وصف السجع الصحيح اي المقفي هي الاكثر .
ونبه اولاً على انه بالإضافة الى ذلك العدد من السور التي هي مسجّمة او

(٢) ممارواه هشام ج ١ ص ١٣٤ من اقوال الهاتف الذي أمر عبد المطالب بن هاشم جد النبي (ص) بحفر بئر زمزم : « احفر زمزم . لا تنزف ولا تدم . تسقي الحجيج الاعظم . وهي بين الفرت والدم . عند نقرة الغراب الاعظم » . ومما رواه كذلك ج ١ ص ١٥ من اقوال سطيح الكاهن في تفسير رؤيا تبع اليمين : « أحلف بما بين الحرنين من حنش . ليهبطن ارضكم الحبش . فيملكن ما بين أبيين الى جرش . ولما سأله تبع اليمين عن موعد ذلك أجاب : بعد ملكه بحين بستين او سبعين . يمضين من السنين . ونحن اذ نورد هذين النموذجين لا زويها كحقيقتين ولكن ورودهما في كتاب من أقدم الكتب العربية يعطينا صورة عن سجع الكهان والهواتف الذي تناقلته الألسنة وحفظته الصدور .

موزونة كلها فان السور الاخرى قاما تخلوا من جملة آيات مسجعة أو موزونة
 ايضاً ، وهو يؤيد ما قلنا من قوة السجع ونفوذها ، وثانياً على ان السجع ليس واحد
 القافية في السورة الواحدة دائماً ، فهناك سور فيها سلاسل مسجعة ذات قواف
 متعددة كما هو في آيات سورة المدثر والمرسلات والفجر التي نقلناها ، وهناك سور
 فيها سلاسل مسجعة بقواف واحدة أو متعددة وسلاسل موزونة الآيات بغير قافية
 واحدة ، بل وهناك موالات بين هذا وذاك في سلسلة واحدة ايضاً . وفي كل هذا
 مظاهر فنية من مظاهر اللغة القرآنية التي هي لغة بيئة النبي (ص) وعصره جديرة
 بالتنويه في هذا المقام .



ومن هذه اللفظون « المرسل » الذي لا يتتيد بقافية ولا وزن . واكثر آيات
 القرآن من هذا النوع ؛ حيث هو أسلوب اكثر السور الطويلة والمتوسطة ، وفيه
 الطويل بحيث تزيد كلمات بعض الآيات منه على المئة وعلى السبعين كما ترى في الامثلة التالية:
 ١ — يا أيها الذين آمنوا إذا تدانيتنم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه
 واكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب
 واحمل الذي عليه الحق وابتق الله ربه ولا يخس منه شيئاً فان كان الذي عليه
 الحق سفيهاً او ضعيفاً أو لا يستطيع ان يمل هو فليمال وليه بالعدل
 واستشهدوا شهادين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون
 من الشهداء أن تضل احدهما فتذكر احدهما الاخرى ولا يأب الشهداء اذا مادعوا
 ولا تسأموا ان تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى اجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم
 للشهادة وأذنى ان لا ترتابوا إلا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم
 جناح ان لا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فانه
 فسوق بكم واتقوا الله ويعامكم الله والله بكل شيء عليم ...

٢٨٢ البقرة

٢ — ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد
 اهتمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الامر من

شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليله حص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور . . .

آل عمران ١٥٤

وفيه المتوسط وهو أكثر المرسل القرآني وهذه أمثلة منه :

١ - أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم . . .

التوبة ١٠٩ - ١١٠

٢ - إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين . . .

يونس ٩ - ١٠

٣ - وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود . . . هود ٦٧ - ٦٨

وايس في هذا النوع قصير جداً ، وكل ما في الأمر أن بعض آيات تكون في بضع كلمات كما ترى في الأمثلة التالية :

٤ - بل هم في شك يلعبون . فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب اليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . . .

٩ - ١٦ الدخان

ونلفت النظر مع ما وصفنا به المرسل إلى أن المرسل القرآني لا يخالوا من رنة تركيزية او توزينية في اواخر آياته بقطع النظر عن عدم التقفية والوزن والروي كما هو ظاهر في الأمثلة التي نقلناها ، وفي الآيات القرآنية المرسله التي هي غالب آيات القرآن .

— ٩ —

كذلك نلفت النظر الى نقطة مهمة في صدد نوعي النثر والسجع والمرسل وهي

البراعة الأسلوبية في استعمال كل منها في المقام المناسب له . فالذي يتدبر آيات القرآن يجد ان الآيات المسجعة القصيرة وكذلك المرسلات القصيرة قد استعملت في الغالب في مقام التبشير والافذار والوعيد والافذار والتمثيل ، لان في اسلوبها ونبراتها وادائها ما يسترعي الانتباه بسرعة ، ويخاطب العاطفة والقلب ، وان الآيات المرسلات المتوسطة والطويلة والآيات المسجعة الطويلة استعملت في الغالب في مقام الجدل والحجاج والتعليم والتشريع والتقدير والحكاية وضرب الامثال لان هذه المقامات تتطلب على ما هو متبادر نفساً طويلاً ، ويخاطب بها العقل اكثر مما يخاطب بها العاطفة ، ويقصد بها التفهيم والتبصير وحمل المخاطب على التفكير والتدبر والمقايسة والاستنتاج اكثر مما يقصد بها الترهيب والترغيب والوعيد والوعيد وليس من ريب في ان هذا الذي اتسعت له اللغة من التنويع والمطاوعة في الأداء والبيان والتناسب مع مقامات القول فضلاً عن السلاسة وحسن السبك وروعة الديباجة ايعطي لسان العربي في عصر النبي (ص) وبيئته صورة رائعة حقاً ، ويضعها في درجة رفيعة جداً .

— ١ —

ومن هذه الفنون « الأمثال » وهي في القرآن على نوعين . أحدهما تمثيل ومقارنة وفيه بعض الاسباب ، وثانيها أمثال قصيرة . ومن النوع الأول جملة صالحة جاءت بأسلوب في غاية السمو والروعة ، وقد تضمنت من الحكم الاجتماعية والعظات الأخلاقية ما يتناسب مع اسلوبها السامي الرائع نورد منها الأمثلة التالية :

١ — أنزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جُفَاءً واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الأمثال

الرعد ١٧

٢ — ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين بانث ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها

ما لها من قرار . . .

إبراهيم ٤٤-٥٥

٣ - الله نور السماوات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجه كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم . . .

النور ٣٥

وهذه أمثلة من النوع الثاني مع التنبيه على انها لم ترو من قبل القرآن كأمثال ، وانما تداولها الناس أمثالا بعد نزولها لما فيها من الحكمة البالغة والمعنى النافذ الذي تكون الجملة المأثورة به مثلاً سائراً :

١ - قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ... البقرة ٣٦٠

٢ - فبهت الذي كفر = ٢٥٨

٣ - قضي الأمر الذي فيه تستفتيان يوسف ٤١

٤ - أضغاث أحلام = ٤٤

٥ - حاجة في نفس يعقوب = ٦٨

٦ - إن كيدكن عظيم = ٢٨

٧ - إن بعض الظن أثم الحجرات ١٢

٨ - مثله كمثل الحمار يحمل أسفارا الجمعة ٥

ولم نطلع على ما يساعد على القول بثقة او جزم ان في القرآن امثالا قصيرة مما كان سائراً قبل البعثه ؛ مع ان مما لا يكاد يحتمل شكاً أنه كان منها شيء كثير ، تسلك به في سلك الفنون اللغوية والأدبية العربية قبل البعثه ، وهو الذي جعلنا نسوغ ذكر الامثال في هذه السلسلة .

وننبه على شيء مهم وهو ان علماء اللغة ساروا على وتيرة واحدة حينما يذكرون الأمثال كفن من فنون اللغة ، وذلك بالاكتفاء بالتنوع القصير ، في حين أن القرآن قد احتفى بالتنوع الأول حفاوة كبيرة ، واختصه بالتنويه والإشارة ، اذ كل ماجاء واحد منه ذكر قبل البدء او بعد الانتهاء منه أنه مثل وان الله كذلك يضرب الأمثال او ما في معنى ذلك كما رأيت في الأمثلة التي نقلناها . وما دام القرآن هو

اصدق وأوثق حورق اللغة العربية في عصر النبي (ص) وبيئته فقد كآ ينبني ان لا يغفل هذا النوع من الأمثال كفن من فنونها .

- ١١ -

ومن هذه الفنون « القصة » او « القصص » . وفي القرآن قصص كثيرة عن الأنبياء السالفين وأهمهم وما جرى لهم وعن غير الأنبياء (ص) ايضاً بأسلوب جميل نورد منها بعض الأمثلة مما لم يرد في العهد القديم والعهد الجديد (اسفار التوراة والانجيل) :

١ - وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين او امضي حقبا . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال أرأيت إذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا . قل ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً . فوجدا عبداً من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً . قال له موسى هل أتبعك على ان تعلمني مما علمت رشداً . قال انك لن تستطيع معي صبراً . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً . قل ستجدني إن شاء الله صابراً ولا اعصي لك امراً . قال فان اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً . فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقها للغرق اهلها لقد جئت شيئاً إمرأ . قال ألم اقل إنك لن تستطيع معي صبراً . قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من امري عسراً . فانطلقا حتى اذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً . قال ألم اقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً . قل إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً . فانطلقا حتى اذا أتيا اهل قرية استطعمها اهلها فأبوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا . قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً . اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت أن اعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقها طفيلاناً وكفراً . فأردنا ان يبدلها ربها

خيراً منه زكاة واقربُ رحماً . واما الجدار فكان لثلاثين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان ابوهما صالحاً فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن امري ذلك تاويل ما لم تسطع عليه صبراً ... الكهف ٦٠-٨٢

٢ - وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون . حتى اذا اتوا على واد النمل قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والديّ وان اعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين . وتفقد الطير فقال مالي لا ارى المهدهد ام كان من الغائبين . لا عذبه عذاباً شديداً او لاذبجنه او لياتيني بسطان مبين . فمكث غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله الا هو رب العرش العظيم . قال سدنظر اصدقت ام كنت من الكاذبين . اذهب بكتابي هذا فآلقه اليهم ثم قول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا ايها الملا اني اتيتك اليّ كتاب كريم . انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعالوا عليّ وأتوني مسلمين . قالت يا ايها الملا افئتوني في امري ما كنت قاطعة امرأ حتى تشهدون . قالوا نحن اولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين . قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة اهلها أذلة وكذاك يفعلون . واني مرسل اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتعبدوني بما لآتاني الله خير مما آتاكم بل اقم بهديتكم تفرحون . إرجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون . قال يا ايها الملا ايبكم يأتيني بعرشها قبل ان يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك واني عليه لقوي امين . قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني

أعشكر أم أ كافر ومن شكر فأنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم .
 قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تاتون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت
 قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنامساكين . وصدّها
 ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلي الصرح
 فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن سابقها قل إنه صرح ممرد من قوارير . قالت
 رب إنني ظلمت نفسي وأسألت مع سليمان لله رب العالمين ... النمل ١٧-٤٤
 وفي سورة يوسف انخوفج رائع للقصة القرآنية التامة ايضاً مع التنبيه انها
 جاءت من حيث التفصيل والحوادث مقارنة كثيراً لما جاء عنها في التوراة . ولم نقلها
 تفادياً من التطويل ، ويحسن بالقاريء ان يقرأها في المصحف بتمعن يرى جمالها
 وروعها .

ونالت النظر الى مافي القصتين اللتين نقلناهما وما في قصة يوسف (ص) من
 حوار شائق ومن عبر بالغة ، ومن عظات حكيمية تخللت حوادث القصة وسردها
 واسبغت عليها لوناً بديعاً .

- ١٢ -

وهناك ناحية فنية اخرى من اللغة العربية في عصر النبي (ص) ويثبته قبل
 البعثة تتمثل في القرآن ونعني بها النحو والصرف والاشتقاق ، حيث احتوى جملة
 صالحة بل الجملة الصالحة فيها ، ولعل اتصال هذه الناحية ببلغة اهل عصر النبي (ص)
 ويثبته قبل البعثة أشد وضوحاً من جهة ومما لا يتحمل اي توقف او سؤال من جهة اخرى ،
 لأن مما لا يتحمل أي ريب ان ما احتواه القرآن هو صورة اقواعد نحو وصرف
 واشتقاق كانت مستعملاً قبل نزول القرآن وطابعاً مستقراً للغة العربية التي نزل
 بها ، وفيه دلالة قوية على ما وصلت اليه هذه اللغة من هذه الناحية من الدرجة الرفيعة
 والنضوج التام الذي كان وما زال مثار إعجاب الباحثين ودهشتهم ، سواء في كمال
 دقتها وحروف جرها ومعانيها وإعرابها ، او في تنوع أوزانها وجموعها وصفاتها ووصيغها
 بحيث لم تصل الى درجتها اي لغة مع ملاحظة ان هذا كان منذ الف واربعائة سنة
 ونيف على اقل تقدير : وطبيعي ان هذا المظهر الرفيع العجيب يصح ان يكون دليلاً

على ذهنية حية جواله ونشيطة ، وعلى ذوق فني بديع . ولا نرى في هذا ما يحتاج الى امثلة او تحمله هنا . لأنه الأساس الشائع العام في اللغة القرآنية واللغة العربية الفصحى المتعارف عايتها والتي تجري في مجرى الأولى بوجه عام .
ونبهه في هذه المناسبة على ما في تطبيق الصرف والنحو والاشتقاق القرآني وما يعرف بفريب القرآن على الشعر العربي الجاهلي حسب ما جرى عليه علماء اللغة والمفسرون وجعل القرآن تابعاً من هذه الناحية لهذا الشعر من خطأ وبعد عن الصواب .
فالقرآن لاغيره هو الذي وصل الينا مدوناً سليماً ، والقرآن لاغيره هو الذي يصح ان يكون مرجع القاعدة اللغوية الصحيح الصادق ، وما يمكن ان يكون فيه شذوذ عن قاعدة مطردة فيه فانه من قبيل المستثنيات التي توجد في كل لغة حية . والشعر الجاهلي الذي يجعل اصلاً للقاعدة لم يصل مدوناً الى عهد التدوين ، وكثير منه مصنوع بعد الاسلام لأغراض متنوعة لعل منها التعامل في هذا التطبيق نفسه ...

- ١٣ -

ومما يدخل في هذه الناحية اللغوية التعريب ؛ وهو مما يتمثل في القرآن ايضاً ، حيث احتوى جملة من الألفاظ العربية أعلاماً وأجناساً عن الرومية والحبشية والفارسية والعبرية وغيرها مثل ابراهيم واسماعيل واسرائيل ويوسف ويعقوب وسليمان وداوود وعيسى وموسى وجالوت وطالوت وجبريل وميكايل ؛ ومثل درهم ودينار وسجيل واستبرق وربيع وحوارين وسرادق ومشكاة وكافور وزنجبيل وستندس الخ ... والتعريب يدا لنا اولاً على أن العرب قبل البعثة قد اخذوا كثيراً من الألفاظ الأجنبية التي لم يكن لها مقابل في لغتهم حينما استعملوا او اقتبسوا مسمياتها ، وان هذا كان من اسباب نمو هذه اللغة ، وثانياً على أنهم كيفوا هذه الألفاظ في الأعم الأغلب وكيفوا كذلك الأعلام الأجنبية على اوزانهم وعدلوا وبدلوا في حروفها حتى يتم لهم حسن الاداء والموائمة مع نبرتهم وحروفهم . وفي هذا وذاك دلالة على سعة صدر اللغة العربية ومرورها وحيويتها في ذلك العهد البعيد وبالتالي على ذهنية جواله نشيطة ومرنة في الناطقين بها ثم على الصلات الكثيرة بينهم وبين الأمم والبلاد المختلفة المجاورة واقتباسهم منهم كثيراً من وسائل ومظاهر

الحضارة والمعرفة . ولا يرد احتمال تناقض بين نص القرآن بأنه لسان عربي مبين ، وبين وجود الفاظ أعجمية الاصل فيه كما هو المتبادر ، لأن هذه الالفاظ قد اندجت في اللسان العربي بصيغتها ونبرتها المعدلة او المعربة وغدت جزءاً منه قبل نزول القرآن ؛ بل وإن هذا ليلهمنا أن هذه المعربات ترجع الى عهد غير قريب من البعثة ونزول القرآن ، وأن دلالات وجودها التي نبهنا عليها تزداد بذلك قوة ووضوحاً ، هذا مع التنبية على ان هناك زيادات وادناآت قائمة على الفرض او التحكم في صدد الفاظ قرآنية كثيرة .

واقعد ذكر بعض القدماء ان في القرآن الفاظاً اعجمية لم يعرفها العرب قبل نزوله ، وان حكمة نزولها هي كون رسالة النبي (ص) لختلف الأمم فاقترضت ان يكون في القرآن الفاظ من لغات امم مختلفة ليتسق بذلك مع مدى الآية « وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ... ابراهيم ع » ، والتهافت في هذا واضح بحيث لا يتحمل نقداً .

— ١٤ —

يضاف الى ما ذكرنا من الفنون اللغوية ما يتمثل في القرآن من فنون الكلام الأخرى كالجدل والبرهان المفهم ، وكوصف حالات نفسية في منتهى الروعة والنفوذ الى أدق الاحساسات ، وكوصف مظاهر الطبيعة وسنن الكون وصفاً قوياً أخذاً يجعل سامعه وقارئه يرى فيه من العظمة والابداع والنظام الدقيق المدهش ما يجعله على التسليم بعظمة الباري عز وجل . وكوصف ما باقي الناس في الآخرة من حساب ونعيم وعقاب وصفاً قوياً رائعاً يكاد سامعه وقارئه كذلك يشعر به أنه أمام مشاهد ماثلة تحسسها بيديه وراها بعينيه ، مما قد لا يعد فناً مستقلاً كالفنون التي افردنا لها ابحاثاً خاصة ، ولكن فيها من القوة والسمو وبلاغة التعبير والأداء والاعساب ما فيه الدلالات الوافية على مبلغ سعة اللغة القرآنية لشتى فنون الكلام بأرقى درجاتها ، وأروع مظاهرها ، وأعمق نفوذها ، وأبلغ تعبيرها ، وبالتالي على مبلغ النشاط الذهني في اهل العصر والبيئة التي تمثلهم هذه اللغة وارتقاء ادواقهم وسعة تفننهم .

والآيات التي تتمثل فيها هذه الفنون كثيرة جداً ، بل هي كل آيات القرآن تقريباً ، ولا بد لمن يريد ان يشعر بها نفسه ، ويتذوق ما فيها من حلاوة وروعة وقوة خلود من أن يتلوها المرة بعد المرة ، ويقف عند روائعها ويقف المتمعن المستبصر ؛ ولهذا رأينا من التطويل غير الشافي ايراد امثلة هنا ، والاكتفاء بالإشارة الى ارقام بعض مجموعات الآيات . فآيات البقرة (٨-٢٠) مثال رائع لوصف المنافقين و (٧٤) مثال لتصوير مبلغ قسوة قلوب اليهود ؛ وآيات آل عمران (٥٩-٦٠) مثال للجدل المفجع وآيات الانعام (٥٩-٦٥ و ٩٥-٩٩) مثال لوصف عظمة الكون وخالقه ، وآيات الاعزاب (١٣-٢٠) مثال لوصف جبن المنافقين في الشدة وسلاطتهم في السعة وآيات ابراهيم (٤٢-٤٧) مثال لتتديد القارع بالظالمين وآيات الحاقة (١٣-٣٧) مثال لوصف يوم البعث والحساب والجنة والنار ، وآيات المدثر (١١-٢٩) مثال لتتديد القاصم بالبغاة ووصف مواقفهم الجحردية الخ ..

- ١٥ -

هذا ، ونختتم هذا البحث بالقول إننا لسنا منفردين في ما قلناه عن ما بلغ اليه اهل عصر النبي (ص) وبيئته من بلاغة وفصاحة وبيان ، وتفنن في اساليب القول مما يمكن ان يكون مقياساً على ما كانوا عليه من قوة عقل ورجاحة رأي ، وورق ذوق ، بل قال هذا غير واحد من المفسرين تذكر على سبيل المثال ما قاله الطبرسي في تفسيره بجمع البيان :

« إن الله خاطب قوماً عقلاء فصحاء ، قد بلغوا الغاية القصوى من الفصاحة ،

وتسمنوا الذروة العليا من البلاغة » . وما قاله الزمخشري في تفسيره الكشاف :

« إنهم كانوا من صحة التمييز بين الصحيح والفساد ، والمعرفة بدقائق الأمور

وغوامض الأحوال والاصابة في التدبير والدهاء والفتنة بمنزل لا يدعون عنه » .

وما قاله النيسابوري في تفسيره آية (٢٢) من البقرة التي جاء في آخرها « فلا

تجملوا لله انداداً وانتم تعلمون » :

« أي وانتم اهل العلم والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال ، وهكذا

كانت العرب خصوصاً قطان الحرم من قريش وكنانة لا يشق غبارهم في الدهاء والفتنة » ؛

هذا الى أن تقارير جمهور المفسرين مجمعة على أن لغة القرآن هي من مادة
ومفردات وتراكيب وقواعد ومصطلحات بيئة النبي (ص) وعصره . والذي يمكن
أن نكون أضفناه هو أننا استدللنا بسمو طبقة القرآن وما فيه من روعة أداء وقوة
بيان وتفنن في الأساليب - وهي الطبقة الوحيدة التي وصلت اليها عن ذلك العهد
سليمة لا شك فيها حرفاً حرفاً وكلمة كلمة - على ما كانوا عليه من باوغ الغاية القصوى
من الفصاحة ، وتسليم الدرورة العليا من البلاغة ، وما هو من المعقول ان يكون
وراء هذا من عقل راجح ، وفكر ثاقب ، وفطنة ودهاء ، وذوق ونشاط ذهني
بعيد المدى .

- ١٦ -

ونقول استطراداً إن بيئة النبي (ص) وعصره لم يكونا ليخرجا عن الظاهرة
الطبيعية العامة المعروفة من وجود لغة تخاطب وانغة أدب وكتابة الى جانب بعضها
فيها . ويستأنس على هذا بأسلوب الأحاديث النبوية وأحاديث الصحابة وأحاديث
العرب المروية ومقايسته بالأسلوب القرآني . فالأحاديث كانت احاديث مجالس
اعتيادية في الأغلب ، وهي دون طبقة اللغة القرآنية نظماً وسبكاً وأناقاة وابداعاً
كما لا يخفى . ويستأنس على هذا ايضاً بما هو مروى من سجع الكهان ومأثورات
العرافين ، وخطب خطباء العرب وشعر شعرائهم المشهورين ، مما هو أرقى سبكاً
وأناقاة وابداعاً كذلك مما هو مروى من لغة الأحاديث بصورة عامة ، مع تحفظنا
وتوقفنا ازاء كثير مما يروى من هذا وذاك .

ومع ذلك فهناك ظاهرة عجيبة لما كانت عليه اللغة العربية من رقي ونضوج
يتجلمان في أنه لا يكاد يوجد فرق مهم بين مفردات وتراكيب لغة التخاطب والحديث
وبين مفردات وتراكيب اللغة الأدبية والكتابية الراقية اولاً وفي اتحاد كلتا اللغتين
في قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والتعريب ثانياً .

الفصل السابع

في

العلوم والمعارف ووسائلها

ملاحظة مبدئية — القراءة والكتابة في الاوساط الكتابية ودلالاتها ومداهها
— في مكة — في المدينة — مافي القرآن من مسميات وسائل القراءة والكتابة
— كثرة الآيات ودلالاتها — تفنيد بعض الروايات — القراءة والكتابة في البدو
— هل كان لتعليم الصبيان كتابيب — اللغات الأجنبية عند الكتابيين — عند
العرب غير الكتابيين — اطلاع العرب على الكتب الأجنبية — كلمة العلم في القرآن
— فهم العرب لمعناها الفني — تحفظ لابدمنه — المعارف التاريخية عند العرب
وتحليلات واستدلالات قرآنية — مدونات تاريخية وقصصية عند العرب — المعارف
الجغرافية عند العرب واستدلالات قرآنية — المعارف الفلكية واستدلالات قرآنية
— المعارف الطبية — علم الاءناساب — مهاب الرياح — القيافة — معارف العرب
الزراعية والحسابية — كلمة اجمالية — صلة الكهانة والسحر بموضوع الفصل —
مركز الكهان عند العرب — تعبير الكاهن في القرآن — صورة الكاهن عند
العرب وسبب نسبتهم الكهانة الى النبي (ص) الكهانة طور من اطوار العقل العربي
— السحر والسحرة في القرآن — الصورة التي تاهمها الآيات القرآنية — كلمة الحكمة
في القرآن ومعانيها — مفهومها عند العرب — حكماء العرب ولقمان الحكيم في القرآن.

القراءة والكتابة

— ١ —

من الحق ان يلاحظ قبل كل شيء في صدد ما يتناوله هذا الفصل أن القراءة
والكتابة والعلوم والمعارف التي تتصل بها ، والتي لا بد منها لها بالنسبة الى بيئة
النبي (ص) وعصره قبل البعثة بصورة خاصة ، والى طبيعة ذلك العهد في مختلف

انحاء العالم المتحضّر بصورة عامة هما اقل مدي بالنسبة الى عصرنا ؛ سواء من حيث الانتشار والاقبال ، أو الوسائل والاشكال ، أو النطاق والامكانيات ، أو النفع والانتفاع ، أو الحاجة والضرورة ؛ وان من الواجب التحفظ في اعتبار درجة انتشارها في بيئة ما من البيئات القديمة متياساً صحيحاً من مقاييس الثقافة العقلية فيها على اطلاقه كما هو شأنها في عصرنا التي يسّرت الطباعة ونظام المدارس الحديثة فيها القراءة والكتابة وزيادة المعرفة الانسانية لمختلف الطبقات والبيئات ، وصارت القراءة والكتابة بحق من مقاييس القيم الثقافية . ونجد على اننا لا نغني بهذا التحفظ تقليل شأن القراءة والكتابة في العصور والبيئات القديمة بل قد يكون شأنها بسبب طبيعة هذه البيئات والعصور ذا خطورة خاصة ، وقد يكون لدرجة انتشارها في بيئة ما سعة وضيقاً معنى غير يسير في الدلالة على نشاط وحيوية وثقافة هذه البيئة .

— ٢ —

هذا والكلام في موضوع القراءة والكتابة مصبوب بطبيعة الحال على البيئة النبوية عامة ؛ وما دام انه كان في هذه البيئة كتابيون وأميون = غير كتابيين = ومن الكتابيين من كان عربياً ومن كان أعجمياً فمن المعقول ان يقال كلمة عن القراءة والكتابة في اوساط هؤلاء ولو أنهم اقلية من جهة ، وان المطالب معرفة قواد العقامة هم العرب في الدرجة الاولى من جهة أخرى . على ان لمعرفة مدى انتشار القراءة والكتابة في هذه الاوساط ضرورة وفائدة على كل حال . فمن الكتابيين من هم عرب نصارى ويهود ، ودرجة معرفتهم الكتابة والقراءة مما يصح ان يتناولها الكلام ، وان تدخل في مدى التدليل على القوة العقلية العربية ؛ عدا انها تصح ان تعد من المؤثرات في غير الكتابيين من العرب لا سيما اذا كانت واسعة قوية . وهذه الذئطة الاخيرة واردة بالنسبة للكتابيين من غير العرب الذين كانوا يعيشون في الوسط العربي ، ويندجون في مختلف صفحات حياته الاجتماعية والثقافية والمادية . وفي القرآن آيات كثيرة تدل دلالة صريحة على أن القراءة والكتابة كانتا منتشرتين في الكتابيين بوجه عام ، وفي الكتابيين اليهود بوجه خاص بمقاييس

يصح أن يقال عنه إنه كان واسعاً بعض الشيء .

وانت اذ تقرأ ماجاء في الآيات المكية التي هي في الذين كانوا منهم في مكة مثل آيات الانعام ٢٠ و ١١٤ والاعراف ١٥٧ ويونس ٩٤ والرعد ٣٦ والاسراء ١٠٧-١٠٨ والنحل ٤٣ والحج ٥٤ والقصاص ٥٢ - ٥٥ والعنكبوت ٤٦-٤٧ والشورى ١٤ والشراء ١٩٧ والاعراف ١٠ والنمل ٧٦ التي نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول ، وتضمن كذلك في آيات النحل (١٠٣) والفرقان (٤ - ٥) التي نسب الكفار فيها الى الكتابيين تعاميم النبي (ص) ما يتلوه من قرآن يحصل عندك ترجيح بان اكثر الكتابيين في مكة كانوا يقرأون ويكتبون . ولقد انتهى بحثنا فيهم الى انهم لم يكونوا جالية جنسية واحدة وكبيرة وانما كانوا افراداً قليلين من متنوع الأجناس ، ومنهم من كان حديث عهد ، ومنهم من جاب جلباً لمزية ما فيه ، وهذا كله قد يدعم ما تلهمه الآيات من أن اكثرهم يقرأ ويكتب . اما اللغة التي كانوا يقرأونها ويكتبونها فليس من الممكن الجزم بها ، غير ان من ما يصح تخمينه ان الاسرائيليين القلائل كانوا يكتبون ويقرأون العبرانية وان النصراني الاجانب كانوا يقرأون ويكتبون لغاتهم او لغة الانجيل الذي ترجح انه كان بالسريانية واليونانية - اللاتينية ، وهاتان اللغتان كانتا شائعتين في ذلك الظرف في الشام والعراق ومصر . على أن هذا لا يعني ان هؤلاء الاجانب لم يكونوا يقرأون ويكتبون العربية ؛ فاننا لا نستبعد ان لم نقل ترجح ان منهم وخاصة القديسين من كان يقرأها ويكتبها ايضاً ، أما الكتابيون العرب فترجح انهم كانوا يكتبون ويقرأون العربية ، ، وان منهم من كان يقرأ ويكتب لغة الانجيل . ولقد ورد في حديث بخاري ان ورقة بن نوفل قد تنصر وكان يكتب العبرانية .

- ٣ -

اما الكتابيون في المدينة ومعظمهم اسرائيليون فالآيات النازلة فيهم مثل آيات البقرة ٤١ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ٩١ ، وآل عمران ٧٨ ، ٩٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٩ والنساء ٤٤ ، ٤٧ ، ١٥٦ ، ١٦٢ والمائدة ١٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٦٨ والجمعة ٥ التي نقلناها كذلك في الفصل الثالث من الباب الاول تسوغ ترجيح

كون الكتابة والقراءة منتشرتين فيهم أيضاً بنطاق غير ضيق ، ولكنه اضيق من نطاق انتشارها في كتابي مكة . ففي آية البقرة

٧٨

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون »

قرينة قوية على صحة هذا التحفظ حيث تقرر ان من اليهود من لم يكن يحسن القراءة والكتابة . وفي طبيعة الكيان الإسرائيلي المؤلف من جاليات كبيرة نازحة من عهد غير قصير نزوحاً عائلياً ، فيها الكبار والصغار والرجال والنساء والزراع والعمال دليل آخر على صحته أيضاً .

والمرجح ان لم نقل المحقق أن الاسرائيليين الذين كانوا يقرأون ويكتبون انما كانوا يقرأون ويكتبون العبرانية في الدرجة الأولى ففي لغتهم القومية والدينية . وحديث البخاري عن ورقة بن نوفل ، وحديث آخر ذكر فيه ان النبي (ص) أمر زيداً بن ثابت بتعلم العبرانية وهو من الانصار دعامة لهذا الترجيح . على اننا نرجح كذلك ان منهم من كان يقرأ ويكتب العربية أيضاً .

واما بالنسبة لغير الاسرائيليين من الكتابيين فما قلناه عن الاجانب والكتابيين في مكة يطرد هنا بتمامه على ما هو المتبادر .

— ٤ —

والآن ننقل الكلام على القراءة والكتابة بين اهل الحجاز العرب غير الكتابيين وهم اكثرية السكان الساحقة ؛ بل هم المقصودون في الدرجة الاولى من تعبير اهل عصر النبي (ص) وبيئته فنقول إن القرآن قد احتوى آيات عديدة ذكرت فيها ادوات الكتابة والقراءة من كتب وقرطاس ورق وصحف وأقلام ومداد وسجلات كما ترى في الآيات التالية :

١ — ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فامسوه بأيديهم لقال الذين كفروا

إن هذا إلا سحر مبين . الانعام ٧

٢ — قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه

قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً . الانعام ٩١

٣ — وكل انسان الزمناء طائر في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه

منشوراً . اقرأ كتابك كفي بنفسك اليوم عليك حسيبا... الاسراء ١٣ - ١٤
٤ - أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه...
الاسراء ٩٣

٥ - قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات
ربي... الكهف ١٠٩

٦ - يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب... الانبياء ١٠٤

٧ - ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر
ما نفدت كلمات الله... لقمان ٢٧

٨ - والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور... الطور ١ - ٣

٩ - ن . والقلم وما يسطرون... القلم ١ - ٢

١٠ - بل يريد كل امرء منهم أن يؤتى صحفاً منسورة... (١) المدثر ٥٢

١١ - إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى... الأعلى ١٨ - ١٩

١٢ - اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك
الإكرم . الذي علم بالقلم... العلق ١ - ٤

وننبه على ان هذه الآيات جميعها مكية ، ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن
أهل مكة الذين كانوا اول من سمعوها كانوا يفهمون مدلولاتها .

ولقد وردت كلمات الكتابة ومشتقاتها في القرآن نحو ثلاثاء مرة ونيف وكلمة
القراءة ومشتقاتها نحو تسعين مرة ونيف بأساليب متنوعة كما ترى في الامثلة
المكية التي اخترناها لتدل على المعنى الذي يتناولها الكلام مباشرة :

١ - فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك... يونس ٩٤

٢ - وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً... الفرقان ٥

(١) هذه الآية في آيات تنديدية بالمشركين لاعراضهم عن سماع التذكير
والدعوة النبوية ، فكأنما تقول انهم معرضون لأن كلاً منهم يريد ان تنزل عليه
صحيفة خاصة يقرأها .

٣ - ولو تزاناها على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ...
الشعراء ١٩٨-١٩٩

٤ - وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ... العنكبوت ٤٨

٥ - وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير ...
سبأ ٤٤

ويجب ان تضاف الى هذه الآيات ، الآيات التي نقلناها قبل قليل ايضاً لأنها من
من بابها من حيث الدلالة .

- ٥ -

واذا كانت الآيات المدنية التي ذكرت فيها كلمات القراءة والكتابة ومشتقاتها
بكثرة هي حول اهل الكتاب واليهود خاصة على الاء اكثر فان فيها ما هو موجه الى
المسلمين الذين كانوا عرباً من اهل بيئة النبي (ص) وفي صدد تعليم متصل بالحركات
التجارية والحسابية الجارية ونعني بها آية الدين (٢٨٢) الطويلة من سورة البقرة .
فورود هذه الآيات الكثيرة في القرآن تحتوي اسماء وسائل وادوات القراءة
والكتابة ، وتحتفي بالقراءة والكتابة هذه الحفاوة الكبيرة دليل راهن على ان العرب
في بيئة النبي (ص) وعصره قد عرفوا تلك الوسائل والأدوات واستعملوها
وعلى ان القراءة والكتابة فيهم كانتا منتشرتين في نطاق غير ضيق ، فكثرة التردد
تدل على الألفة ، وهذه لا تكون إلا حيث يكون المؤلف ذائعاً ذيوماً غير يسير .
واذا لاحظنا ان أولى آيات القرآن نزولاً على ماعليه الجمهور ويلججه مضمونها
هي آيات سورة العلق الأولى التي نوه فيها بالقراءة والكتابة « اقرأ باسم ربك الذي
خلق - والذي علم بالقلم » بأسلوب يدل على حفاوة عظيمة ، وان ثمانية آيات نزلت
بعدها على ماعليه كثير من الرواة هي آيات سورة القلم الأولى التي اقسم الله فيها
بالقلم والكتابة (والقلم وما يسطرون) مما يدل كذلك على حفاوة بالغة ازداد قولنا
قوة وتأيداً .

ولعل في آية الأنعام (٧) وفي آية الاسراء (٩٣) بنوع خاص قرآن قوية
ايضاً ، فالآيتان قد جاءتا في معرض التحدي والتنديد ، وبصيغة الجمع ، واسلوب آية

الاسراء اسلوب الاليف للقراءة والكتابة ؛ ومن أقوى القرائن آية المدثر (٥٢) اذا ما امعن في مضمونها ومدائها، ومثل هذا يقال بالنسبة لآيات الاسراء (١٣-١٤) التي تفرض جميع الناس يقرأون ويكتبون ولو كان الكلام في صدد مشاهد الآخرة . هذا من جهة ومن جهة اخرى فان مكة مدينة تجارية ، وكانت رحلات تجارها متوالية الى بلاد كانت على حظ غير يسير من الحضارة كاشام ودمصر والعراق وفارس واليمن ، ومن المعقول ان يكون هؤلاء الغادون الرائجون قد تأسوا بما رأوه هناك من ذبوع الكتابة والقراءة ووسائلها فشحجوا على اذاعتها في بيئتهم . هذا الى ما كانت طبيعة مشاغلهم التجارية تقضي به من القراءة والكتابة والاعمال الحسابية ؛ فان هذا ايضاً مما ينبغي ان يكون حملهم على التشجيع والاذاعة . ويلفت النظر خاصة الى آية البقرة (٢٨٢) وما فيها من الحث على العناية بتسجيل الاعمال التجارية وعقود الديون ، فان هذا يلهم انه كان من الممكن تنفيذ ما يحث السامعون عليه . واستعداد البيئة له بمقياس غير ضيق ، عدا ما يلهم ذكر الكاتب على الوجه الذي جاء في الآية بأسلوب حفي من وجود طبقة مخصوصة تحترف الكتابة والتسجيل وكتابة العقود التجارية ، وما في هذا من دلالة على سعة الاعمال التجارية واقتضاها وجود مثل هذه الطبقة .

ثم ان القرآن المبكي ضعف القرآن المدني تقريباً ، وكانت آياته تكتب في الصحف ويتداولها المسلمون في بيوتهم يقرأونها وينسخونها ، فاذا كان من المحتمل ان اكثر رجال المسلمين في مكة (١) او ان كثيراً منهم كانوا يقرأون ويكتبون وهم أقلية ضئيلة بالنسبة لأهل مكة فيكون من المعقول ان عدد الذين يقرأون ويكتبون في مكة كان كبيراً ؛ لاسيما وان اكثرية الطبقة البارزة من زعماء ووجهاء وتجار

(١) ان حادثة اسلام عمر بن الخطاب (رض) التي ذكرها ابن هشام في الجزء الاول ص ٣١١ من سيرته والصحيفة القرآنية التي وجدها في يد شقيقته فاطمة وهي من الحوادث المعروفة المروية كثيراً تدل على ان من النساء المسلمات من كن يقرأن ويكتبن قبل البعثة . أما الروايات التي تذكر النساء المسلمات القارئات الكتابات بعد الهجرة فكثيرة . وليس من ريب ان هذا استمرار لما سبق من ناحية ما .

واغنياء لم تكن في عداد المسلمين ، وهؤلاء او اكثرهم مظنة القراءة والكتابة . بل إن هناك من الروايات ما يدل على اكثر من هذا ذكرها المفسرون وكتاب السيرة (١) في سياق تفسير آيات الاسرى ٦٧-٧٠ في سورة الاءنفال حيث ذكر فيها أنه كان بين الاسرى فقراء لا يملكون فداء ، فجعل النبي فداءهم أن يعلم الواحد منهم عشرة من اطفال المسلمين القراءة والكتابة ، وهذا يعني ان القراءة والكتابة كانتا فاشيتين في اهل مكة بحيث لم يكن الفقراء والمتوسطين خارجين عن نطاقها فضلاً عن طبقة الزعماء والاغنياء والتجار .

يضاف الى هذا وجود تلك الجمالية الاجنبية في مكة والتي نسب الى بعض افرادها تعليم النبي (ص) ومساعدته كما سبق القول . فليس من التجوز ان يظن ان من هؤلاء الذين رجحنا أن اكثرهم يقرأون ويكتبون من كان يعلمها للعرب او اطفالهم او اطفال الاغنياء والزعماء الذين كان منهم بعض افراد هذه الجمالية رقيةاً عندهم ، وبالتالي من كان يساعد على اذاعتها .

كذلك يضاف الى هذا وجود عرب متنصرين من اهل مكة طارئين ومستقرين فيها مما رجحناه في الفصل الثالث من الباب الاول . ولقد رجحنا قبل قليل غلبة احتمال معرفة هؤلاء او اكثرهم القراءة والكتابة ايضاً ، فليس من التجوز ان يكونوا ممن ساعد على اذاعة القراءة والكتابة في مكة ايضاً .

وعلى هذا كله ايضاً نقرر ان ما ذكره بعض المؤلفين القديين ونقله عنهم بعض المؤلفين الحديثين (٢) من انه جاء الاسلام ولم يكن يكتب ويقرأ في مكة إلا سبعة عشر شخصاً ، وانه لم يكن في جميع اليمن من يكتب ويقرأ ، وان الحروف العربية لم تخترع الا قبيل البعثة النبوية ، وان الافراد القلائل الذين تعلموها من اهل مكة لم يتعلموها الا في هذا الظرف ، وان وسائل الكتابة في عصر النبي (ص) وبيئته لم تكن تعدو لحاء شجر واكتاف عظام ، وقطع جلد ، ورقائق حجارة

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٦١

(٢) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ج ١ ص ١٢٤

الحق انما هو قول جزاف لا يثبت أمام التمهيج والتميز ، وقد تقضته الحقائق العلمية الراهنة (١) .

- ٦ -

وإذا كان جل ما قلناه قد انصب على سكان مسكة من العرب فلا يعنى هذا أن العرب سكان يثرب وغيرها من المدن الحجازية لم يشملهم الكلام والقرائن القرآنية ، فاللغة المكية هي لغة العرب في هذه المدن ، والدلالات والملمهات القرآنية تنسحب عليهم بطبيعة الحال ولو كان ما نقلناه من الآيات مكيًا . على ان في القرآن المدني آيات كثيرة في صدد القراءة والكتابة والكتب لا يصح أن يشك في ان سكان يثرب من العرب كانوا يفهمون دلالاتها ولو كان جملها ورد في صدد الكتابيين عامة واليهود خاصة . ولقد كانت يثرب مقر جالية يهودية كبيرة كان لها كتبها ومدارسها ومعلموها وأخبارها وربانيوها ، ولقد رجحنا أنه كان بين الأسرائيليين من يحسن القراءة العربية ، ولقد رجحنا كذلك وجود كتابيين غير اسرائيليين من عرب وغير عرب ، فهؤلاء يدخلون من جهة في متناول تقرير انتشار الكتابة والقراءة ، ومن جهة اخرى في احتمال مساعدتهم في تعليم واذاعة القراءة والكتابة العربية . والمدينة بعد مركز تجارى وطريق تجارية ، وايس من المعقول كما هو المتبادر ان يبقى عربها في عزلة عن القراءة والكتابة ، وان لا يكونوا قد احتاجوا اليها وتأسوا فيها بمن بينهم قبل البئمة ؛ ولهذا فنحن لا نسمعنا ان نسلم بصحة رواية ابن سعد (٢) في سياق اشتراط تعليم أسرى قريش لابناء المسلمين من أب أهل مكة كانوا يكتبون وأهل المدينة لم يكونوا يكتبون . واشتراط تعليم أسرى قريش

(١) في احد فصول تاريخ الإسلام المستشرق الطليمانى كيتانى بحث مسهب في نشأة الخط العربى اثبت فيه بالدلائل المادية والاستكشافية الحاسمة ان الخط العربى قديم الوضع والذبوع في مختلف أنحاء جزيرة العرب والشامية منها خاصة ومنها الحجاز وفي مقدمة تفسيرنا بحث واف اتمينا به الى التقرير الاستدلالي بان القرآن كان يدون على رقوق وصحف ، وقرطيس .

(٢) ج ٢ ص ٦١

لابناء المسلمين الأنصار ليس برهاناً على عدم انتشار القراءة والكتابة في المدينة ، ففي كل بيئة منها كانت القراءة والكتابة فيها فاشيتين يوجد اطفال كثيرون حرموا من فرصة التعلم لسبب ما . وهذا الواقع يفرض في بيئة النبي (ص) وعصره بقوة أكثر ؛ هذا عدا أن المهاجرين لم يكونوا جمهرة كبيرة في ظروف وقعة بدر ، وكثير منهم هجر مكة وفيها افراد من عائلته بل ومنهم من تخلف نساؤه عنه كما تلمحه آيات الممتحنة ١٠ - ١١ : التي تهي المسلمين عن التمسك بعضهم زوجاتهم الكافرات وتأمراً بالتعويض على الأزواج المسلمين الذين فاتتهم زوجاتهم الى الكفار :

- ١ - ولا تمسكوا بعصم الكوافر ...
 ٢ - وأن فاتكم شيء من أزواجكم الى الكفار فما تقم فآتوا الذين ذهبتم أزواجهم مثل ما أنفقوا ...
 ١١
- ولهذا كله يصح القول إن الكتابة والقراءة في يثرب والمدن الحجازية الاخرى كالعائف وجده كانتا كذلك منتشرتين ، وان كان مما يصح ان يكون انتشارها في مكة ويثرب اوسع منه في غيرها .
- اما البدو او الأعراب فاننا نميل الى القول ان الكتابة والقراءة فيهم لم يكن لها نصيب من الشيوع ، ولا يمنع هذا ان يكون بعض افراد في أنحاء الحجاز المختلفة قد المواهبها إنمالمأ ساذجاً . وفي روايات السيرة ما يستأنس به على صحة هذا القول ؛ حيث ذكرت ان بعض نابهيم قابل النبي (ص) في احد المواسم وكان معه ما سماه مجلة لقمان (١) .

- ٧ -

ونود أن نتساءل عما اذا كانت القراءة والكتابة في المدن الحجازية تعلمان للصبيان في مدارس او كتاتيب ؟ ونميل الى الايجاب في الجواب وإن لم يكن في القرآن ما يثبت هذا او ينفيه . فان عدداً من شباب المسلمين المكين عرفوا بانهم يقرأون ويكتبون . ونعرف كذلك أن كتاب النبي (ص) كانوا من الشباب سواء

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٨ الطبعة الاخيرة للبابي

منهم المشيكون او المديون . فعاوية بن ابي سفيان مثلاً كان حدثاً يوم الفتح -- اذ ذهب مع جيوش الفتح وهو فتى ، وتولى حكم الشام وهو شاب ؛ وقد هاجر الى المدينة بعد الفتح وكان من كتاب النبي (ص) ؛ ونستطيع ان نذكر عدداً غير قليل مثله اذا اردنا الاستقصاء ، فهذه الطبقة تعلمت الكتابة والقراءة في سن الحداثة على ما هو المتبادر ، وليس من المستبعد أن تكون قد تعلمت على يد معلمين بصورة جماعية وهذا معنى الكتاب او المدرسة مهما كان الشكل .

ولقد ذكرت كتب التراجم أن والد الحجاج بن يوسف امير العراق كان معلم كتاب في الطائف (١) ، والحجاج ولد في اواخر عهد الخلفاء الراشدين ، وربما كان كتاب ابيه إذا صححت الرواية في عهد عمر بن الخطاب (رض) او قبله عدة ما . وليس من التجوز ان يقال انه لم يخترعه وان يكون استمراراً من عهد ما قبل البعثة ، حتى ولو لم تصح الرواية في ذاتها وأريد بها غمز أصله او أرومته فانها تدل على ان هذا النوع من الكتابات كان موجوداً ومعروفاً في عهد ابي الحجاج ، وهو مقارب لمصر النبي (ص) إن لم يكن نفس العصر . واننا نرجح ان الكتابات والمدارس كانت معروفة في بلاد الشام ومصر التي كانت تحت سيادة الرومان الذين لا شك في انهم كان لصبيانهم مدارس وكتاتيب يتعلمون فيها وفي انهم اقاموا مثلها في هذه البلاد ؛ ومن المحتمل ان يكون تجار الحجاز وزعمائها الذين كانوا يترددون على هذه البلاد قد اقتبسوا ذلك في جملة ما اقتبسوه . ونرجح أن الجالية اليهودية الكبيرة في يثرب قد انشأت لصبيانها مثل ذلك ؛ ونقدم ترجيحنا بجملة جاءت في احدى آيات آل عمران خطاباً لليهود :

والكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ... ٧٩
حيث تلهم منها كانت في صدد آخر انه كان لليهود نوع من المدارس يعلم أحبارهم وربانيوهم فيها الكتاب . ولا نستبعد ان يكون للجالية الكتابية في مكة مثل ذلك ، واهل ما في الشام ومصر منه هو الاصل الذي نقل عنه كتابيو الحجاز وجالياتهم ، واهل بعض هؤلاء الكتابيين والعرب او المستعربون منهم خاصة كانوا

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٢٧ - ٢٨

قد ساعدوا اهل المدن الحجازية في انشاء هذه المدارس او تولوا تعاليم أبنائها فيها .



ويخطر بالبال سؤال آخر وهو ما اذا كان بعض اللغات الاجنبية منتشراً في عصر النبي (ص) ويثبته بين العرب ، ولم نتساءل عن انتشار شي من اللغات الاجنبية بين الكتابيين غير العرب لأن هذا في اعتقادنا لا يحمل شكاً ، وآية النحل (١٠٣) صريحة بان من كان في مكة منهم كان أعجمي اللسان ؛ وآيات الشعراء (١٩٨ - ١٩٩) ايضاً قوية الاطهام بانه كان في مكة أناس عجم اللسان . والآيات العديدة المدنية الواردة في بني اسرائيل والتي تشير الى ما كان بين أيديهم من كتب يقرأونها ويتدارسونها وفي الروايات العديدة التي ذكرت ان النبي (ص) أمر بعض الشبان المسلمين في المدينة بتعلم العبرانية ، وأن النبي (ص) في بعض مواقف الحجاج اليهودية أمر اليهود باحضار التوراة وكلف احد مساعديهم عبد الله بن سلام بقراءتها ، وعدم ورود أي رواية أو خبر عن وجود ترجمة عربية للتوراة اذ ذلك قرائن يصح ان تورد في هذا المقام لتدعيم كون اليهود كانوا يعرفون العبرانية ويتدارسون كتبهم بها في عصر النبي (ص) ، والنقطة الأخيرة تصلح لتدعيم الكتابة الأعجمية في مكة والمدينة ، تقرأ كتبها الدينية وتدارسها بلغتها .

ونقول في صدد الأجابة على السؤال أنه ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على معرفة العرب لغة اجنبية بصراحة . غير ان وجود عرب كتابيين في مكة والمدينة على ما رجحناه في بحث سابق ، وعدم ثبوت ترجمة عربية للتوراة والانجيل يجعل القول باحتمال إلمام هؤلاء الكتابيين أو بعضهم بلغة كتبهم الديني سائفاً . واذا كان من المعقول ان يدخل كتابيو العرب في الحجاز في متناول الآيات القرآنية التي تذكر أهل الكتاب وأهل العلم وأهل الذكر وكتبهم وقراءتهم ودراساتهم ، وقولهم حينما كان يتلى عليهم القرآن أنهم كانوا من قبله مسلمين وانه الحق من ربهم ومصطفى لما بين أيديهم من الكتب الخ مما نقلناه في الفصل الثالث من الباب الأول فيكون احتمال معرفة الكتابيين العرب او أفراد منهم لغات اجنبية واراداً وصحیحاً

بالاستلھام القرآن ايضاً ، وبالإضافة الى هذا الاحتمال فانه من المحتمل ان يكون هؤلاء قد تعلموا هذه اللغات في مكة والمدينة من الكتائين الاجانب فيهما . ولقد جاء في حديث بدء الوحي الذي رواه البخاري عن عائشة (رض) ان ورقة بن نوفل كان قد تنصر وكان يكتب باللغة العبرانية ؛ فهذا الخبر جدير بان يستأنس به على ما نحن بسبيل تقريره ويدعمه ، والحديث قد ذكر ورقة بمناسبة شخصية ، فليس من التجوز أن يقال انه لم يكن وحده ملماً باللغات الاجنبية من كتابي العرب كما هو واضح .

على اننا لا نظن ان الأمر قد اقتصر على كتابي العرب الحجازيين أو بعضهم ونميل الى الظن بان غيرهم من أهل مكة والمدينة قد ألم قليلاً أو كثيراً بلغة اجنبية ما ، فأهل مكة في رحلات تجارية مستمرة ، والبلاد التي كانوا يرحلون اليها وإن كانت محاطة الاطراف بالقبائل العربية فان اللغات الغالبة في مدنها غير عربية ، وقد كانوا يتغلغلون فيها ، ومصالحة التعامل والسفر تقضي بالأمم بشيء من لغاتها وهي اليونانية اللاتينة والارامية السريانية والقبطية والفارسية ، ودلات أهل يثرب وثيقة باسرائيليين يحتفظون بلغتهم العبرانية ؛ وايس من التخرص ان تقول هذا بالنسبة لأهل جدة ايضاً المتصايين بالعالم الخارجي عن طريق الملاحه ، والملاحون دائماً يأمون باللغات الاجنبية بطبيعة مهتهم كما لا يخفى . ولعل ما في اللغة العربية من كلمات كثيرة معربة عبرانية الأصل او يونانية او فارسية او حبشية او قبطية من الغرائن على ما تقول بوجه عام ، فالذين ينقلون من لغة اجنبية الى لغتهم يعرفون في الغالب معناها او يأمون قليلاً أو كثيراً باللغة التي منها الكلمات .

— ٩ —

هذا ، ويستتبع إلمام العرب باللغات الاجنبية احتمال اطلاع بعض الملمين على الكتب المكتوبة باللغات التي ألموا بها . واذا كان هذا وارداً بل ومستلماً من القرآن بالنسبة للكتائين العرب على ما أسلفنا قوله فاننا لانراه غير وارد بالنسبة للأمة — غير الكتائين — منهم ايضاً . فالمام بعضهم باللغات الاجنبية ، واتصالهم بمن في أيديهم كتب مكتوبة بهذه اللغات دينية وغير دينية من الكتائين في الحجاز والبلاد

المجاورة مما هو ميسور وواقعي يجعل احتمال اطلاعهم على هذه الكتب او بعضها قائماً
إن لم نقل طبيعياً .

ونعقب على هذا كله فنقول انه من الطبيعي أن يكون لأئمام العرب باللغات
الأجنبية في عصر النبي (ص) وبيئته ، واطلاع الملمين على بعض الكتب الدينية
وغير الدينية بهذه اللغات الذي نظن أن ما قلناه كاف لترجيح احتمالها دلالة على سعة
أفق أهل بيئة النبي (ص) وعصره وحيويتهم ونشاطهم العقلي من جهة وتأثيرها في
أذهانهم وثقافتهم من جهة أخرى مهما كانت دائرة ذلك الأئمام والاطلاع ضيقة أو
محدودة .

العلوم والمعارف

- ١٠ -

في القرآن آيات كثيرة يمكن الاستناد اليها واستلهاها في درس ما يمكن ان
يكون عند أهل بيئة النبي (ص) وعصره من علوم ومعارف بعد أن تبيننا ما عندهم
من وسائلها كالقراءة والكتابة والأئمام باللغات الأجنبية ، والاطلاع على الكتب
الأجنبية .

ويحسن بنا قبل المضي في هذا الموضوع أن نتساءل عما اذا كانت كلمة « العلم »
مفهومة اذ ذاك ومستعملة بمعناها الفني المعروف .

إن الآيات القرآنية قد رددت كلمة العلم ومشتقاتها مثل العلماء ، والمعلمين ،
والذين أوتوا العلم ، والراسخين في العالم . وقوم يعلمون ، والذين يعلمون والذين
لا يعلمون ورددت كذلك كلمة « التعلم » ومشتقاتها ؛ ورددت كلمة « الدرس »
ومشتقاتها في صدد الكتب الدينية والتعاليم الدينية كثيراً حيث بلغ عدد مشتقات
كلمتي العلم والتعاليم اربعاً وثمانين .

ومن المسلم به ان كلمتي العلم والتعاليم ومشتقاتها قد استعملت في معان غير
معنى « العلم » الفني المعروف حيث استعملت لاداء معاني : الفهم والتفهم والمعرفة
والإحاطة والادراك والألهام والأبحاث والبيان والتبيين والتأكيد والتصديق
واليقين والرؤية والمشاهدة والأحاسيس والتمرين والشعور والعلم بأمور الدين

والكتب السماوية ، وكانت احياناً تعني الطبقة النيرة والعقلاء وذوي البصائر
والأفهام ايضاً مما هو منبث في سور القرآن المختلفة ولا يحتاج الى تمثيل .
غير ان من الحق ان يقال ان هاتين الكلمتين ومشتقاتهما قد استعملت في القرآن
كذلك في الدلالة على « العلم » و « التعاليم » بمعناها الفني المعروف ، سواء أكان ذلك
للعلم والتعليم دينياً أم دنيوياً كما يمكن ان يفهم من الآت التالية :

- ١ - ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ... البقرة ١٥١
 - ٢ - وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى
يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ... البقرة ١٠٢
 - ٣ - إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ... البقرة ٢٤٧
 - ٤ - والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ... آل عمران ٧
 - ٥ - ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون
آل عمران ٧٩
 - ٦ - ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا
ما فيه ... الأعراف ١٦٩
 - ٧ - إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجبي ... النحل ١٠٣
 - ٨ - أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل ... الشعراء ١٩٧
 - ٩ - قال الذي عنده علم من الكتاب ... النمل ٤٠
 - ١٠ - وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ... العنكبوت ٤٣
 - ١١ - إنما يخشى الله من عباده العلماء ... فاطر ٢٨
- فاننا صح استشهادنا واستنتاجنا فيكون قد وجد عند العرب هذا المعنى وفهموه
قبل اللبثة ، لا سيما واكثر هذه الآيات مكية أي انها استعملت قبل ان تتسع الدعوة
الاسلامية وتتطور معاني الكلمات او بعضها . واذا كان الامر كذلك فليس من
التجوز ان يقال ان الذين كان هذا المعنى في لغتهم واذهانهم بالتبعية موجوداً
ومفهوماً لا بد من ان يكونوا مامين ببعض العلوم ومشاركين فيها بشكل من الاشكال
وإن لم يكن قد انتهى الينا شيء كثير وموثوق عن ذلك ، وإن لم يكن قد ورد في

القرآن عنه شيء واضح ومعين . ومع هذا فإن في القرآن من الدلالات والارشادات والملمهات ما يساعد على عرض بعض صور وأشكال من العلوم والمعارف عند العرب في عصر النبي (ص) وبيئته كما ستري في الأبحاث الآتية .

على اننا نود قبل البدء في ذلك أن نبدي تحفظاً في اطلاق وجود « العلم » بمعناه الفني المعروف اليوم الذي يتناول طرائق البحث والتمحيص ، ووسائله الدرس والمقارنة وأصولها واساليبها ، ووضع القواعد والذساير العلمية والفنية الخ حيث نجزم أن العلم عند العرب في ذلك العصر والبيئة لم يكن قد وصل الى هذه الدرجة او المفهوم الفني ، وكل ما نعنيه من ذلك الاطلاق أن من العرب من اطلع على كتب متنوعة ، وتدارس بعض العلوم ، وفقه بعض قواعدها ، ولم يبق من هذه النواحي سماعياً على سجيته البدوية وبصيرته الطبيعية ، ومكتسباته العابرة .
واليك الآن المواضيع العلمية والغنية التي يمكن أن يستلهم من القرآن انه كان للعرب مشاركة او إلمام فيها ضمن النطاق الذي ذكرناه آنفاً :

— ١١ —

في القرآن قصص كثيرة عن الامم الغابرة في جزيرة العرب وفي خارجها فمن الاول :

(١) ما يتعلق بسبأ قديماً وحديثاً . القديم منه في سياق قصة ملكة سبأ وما كان لها من ملك ضخم وقوة بأس ورجاحة عقل ، وما كان بينها وبين سليمان (ص) النبي الملك الاسرائيلي (آيات النمل ١٦ — ٤٤) (١) ، والحديث منه في سياق الاشارة

(١) اكتفينا بالاشارة الى الآيات خلافاً لما سرنا عليه لانه النصوص القرآنية ليست مقصودة بذاتها هنا الاستدلال . ولما كان موضوع الكتاب هو عصر النبي (ص) وبيئته فاننا لم نعرض ما تدل عليه الآيات القرآنية من الحضارة العربية القديمة التي قامت في أنحاء الجزيرة العربية المختلفة . وإلا فلآيات تصح ان تكون مصدراً للتعريف بحضارة وعمران ورفاه وبأس قامت في العهود المتقدمة كثيراً عن عصر النبي (ص) في بلاد اليمن وحضرموت ومدائن صالح وشبه جزيرة سيناء اي في جنوب جزيرة العرب وشمالها ، وكان العرب يتداولون اوصافها واخبارها جيلاً -

الى ما كان من عمران مملكة سبأ بعد ذلك العهد البعيد، وكثرة ما كان فيها من مدن وقرى تكاد تكون سلسلة متصلة الى الحجاز، وما كان فيها من مياه وجنات، ووراء ونعيم، ثم ما كان من أمر سيل العرم ونهتر المملكة وشجرة السكان وتمزقهم شر ممزق (آيات سبأ ١٥ - ١٩).

(٢) ما تنطوي عليه الاشارات المقتضية الى توضع مما كان معروفاً ومتداولاً من حكم التبابعة في اليمن (آيات الدخان ٣٧ وقاف ١٤)

(٣) ما يتعلق بالاعحفاف - القسم الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب - منازل عاد، وما كان فيها من عمران ومدن وقرى وزروع وعيون وقوة بأس، ومراصد في ذرى الجبال، وخزانات المياه، وما كانوا عليه من قوة جسمانية الخ وما كان من بعثة هود (ص) فيهم وتدميرهم بالريح الصرصر العاتية. (آيات الاعراف ٦٥ - ٧٢ وهود ٥٠ - ٦٠ والشعراء ١٢١ - ١٣٤ وفصلت ١٥ والاعحفاف ٢١ - ٢٦ والقمر ١٨ - ٢٠ والفجر ٦ - ٨)

(٤) ما يتعلق بمنازل ثمود التي سماها القرآن بالحجر ايضاً، وما كان فيها من عمران وجنات ونخيل وزروع ومياه وما كان لهم من بيوت منحوتة في الجبال، وقصور في السهول، وما كان من بعثة صالح (ص) فيهم ومعجزة الناقة لهم ثم ما كان من عقر الناقة وما حل فيهم من تدمير بالرجفة (الاعراف ٧٢-٧٨ وهود ٦٠ - ٦٨ والحجر ٨٠ - ٨٣ والشعراء ١٤١ - ١٥٢ والنمل ٤٥ - ٥٢ والقمر ٢٣ - ٣١ والفجر ٩)

(٥) ما يتعلق بمدين وهي في طرف جزيرة العرب الشمالي الغربي، وما كان

-بعد جيل الى عصر النبي (ص). والآثار التي ما زالت الى اليوم في الانحاء المذكورة تؤيد ذلك تأييداً قوياً وعظيماً لانها تدل على قوة وسعة هذه الحضارة بالنسبة للعصر التي وجدت فيها وتدل على أن العرب في عصر النبي (ص) ايسوا بسبيل عهد حضري حديث على الامة العربية، عدا ان ما انشأته الموجات العربية القديمة في العراق والشام ومصر وحضارات يدل على ذلك ويمت اليه ايضاً.

عليه أهلها من ثروة وقوة وحركة تجارية واخذ وعطاء وبيع وشراء وما كان
من رسالة شعيب (ص) إليهم وتدميرهم (آيات الأعراف ٨٥ - ٩١ وهود ٨٤ - ٩٥
والشعراء ١٧٦ - ١٩٠) .

(٦) ما يتعلق بصلة إبراهيم (ص) بمكة واسكانه بمض ذريته في حرمها وبنائه
الكعبة وابنه اسماعيل (ص) ومصلاه الذي عليه علامات واضحة (إبراهيم ٣٥ - ٤١
والبقرة ١٢٤ - ١٣١ وآل عمران ٩٦ - ٩٧) .

ومن الثاني أي خارج جزيرة العرب ماله صلة بالمذكورين في التوراة ومنه
ما ليس له هذه الصلة . فمن الأول :

(١) نوح (ص) وطوفانه وسفينته (آيات يونس ٧١ - ٧٣ وهود ٢٥ - ٤٨
والمؤمنون ٢٣ - ٢٨ والقمر ٩ - ١٦) .

(٢) وقصص إبراهيم وقومه (ص) مع قومه وماكهم ونزوحه الى فلسطين
ورؤياه ومحاولة تنفيذها وفداء ابنه وذريته الخ . (البقرة ٢٥٨ - ٢٦٠ والاعنعام
٧٤ - ٧٨ وهود ٦٩ - ٧٦ ومريم ٤١ - ٥٠ والانباء ٥١ - ٧٣ والشعراء
٧٠ - ١٠٤ والمنكوت ١٦ - ٢٥ والصفات ٨٣ - ١١٣)

(٣) وقصة لوط (ص) ونزوحه مع إبراهيم وما كان من قومه واخلاقهم السيئة
وخسف الله بلادهم والاشارة الى قيام آثارها (الأعراف ٨٠ - ٨٤ وهود
٧٧ - ٨٣ و٦١ - ٧٧ والشعراء ١٦٠ - ١٧٥ والصفات ١٣٣ - ١٣٨ والقمر ٣٣ - ٤٠)
(٤) وقصة يوسف (ص) واعوام الجذب في مصر ونزوح آل يعقوب الى مصر
(سورة يوسف ٤ - ١٠١) .

(٥) وقصص اضطهاد فرعون ابني اسرائيل ونشأة موسى (ص) ودعوته
ومعجزاته وموقف فرعون منها وما كان من المناظرة السحرية ومصير فرعون
 وخروج بني اسرائيل من مصر ومعجزاتهم وتيهمهم ومناجاة موسى (س) ربه
وحروب بني اسرائيل وملك داوود وسليمان (ص) والغزوات الخارجية على بني
اسرائيل وشتاتهم في الأرض (البقرة ٢٤٦ - ٢٥١ والمائدة ٢٠ - ٢٦ والأعراف
١٣٠ - ١٣٣ و ١٦٤ - ١٦٩ و ١٣٨ - ١٣٩ و ١٤٢ - ١٤٥ و ١٤٨ والاسراء

٤ - ٧ وطاها ٥٧ - ٧٠ و ٧٦ - ٧٧ والأنبيااء ٧٨ - ٨٢ والشعراء ١٠ - ٦٨
والنمل ١٥ - ٤٤ والقصص ٣ - ٦ و ٣٩ ٧ وسبأ ١٠ ١٤ وصاد ١٧ - ٢٠ و ٢٦
و ٣١ - ٢٩) .

٦) وقصة ايوب (ص) وبلائه وشفائه (الانبياء ٨٣ - ٨٤ وصاد ٤١ - ٤٤)
٧) وقصة يونس (ص) وغضبه من جحود قومه وركوبه السفينة وقذفه
منها وابتلاع الحوت له وقذف الحوت اياه ثانية وایمان قومه به بعد ذلك (الصافات
١٣٩ - ١٤٨ والقلم ٤٨ - ٥٠)
ومن الثاني :

١) قصة ذي القرنين واملاكه المشارق والمغرب وبنائه سد ياجوج وماجوج
(الكهف ٨٣ - ٩٨)

٢) وموسى (ص) والرجل الصالح وما كان من اعمال هذا التي انكرها
عليه موسى (ص) لما فيها من مخالفة ظاهرة للحق والمنطق وتفسيره اعماله له بعد
ذلك (الكهف ٦٠ - ٨٢)

٣ - وقصص زكريا ويحيى ومريم وعيسى (ص) المتنوعة وما كان من امر
ولادة يحيى (ص) بمعجزة وولادة عيسى (ص) بمعجزة ورسالة عيسى (ص)
لبنی اسرائيل وایمان الحواريين ، واستنزال المائدة من السماء (آل عمران ٣٢ - ٦٢
والنساء ١٥٦ - ١٥٩ والمائدة ١٠٩ - ١١٨ ومرم ١ - ٤٠ والزخرف ٥٧ - ٦٥
والصف ٦) .

٤) وقصة أصحاب الكهف ونومهم سنين طويلة ويقظتهم ثم موتهم وعدتهم
وكلهم الخ (الكهف ٩ - ٢٦) .

٥) وقصة لقمان وحكمته ومواعظه لابنه (لقمان ١٢ - ١٩)
ومن الذي له صلة بالانبياء المذكورين في التوراة ما يتطابق مع قصصهم في
القرآن قليلاً أو كثيراً أو جملاً أو تفصيلاً مع ما جاء في التوراة ومنها ما يتغابر
ومنها ما لم يرد في التوراة بل مرة كما كثر قصص ابراهيم (ص) وقصة موسى (ص)
والعبد الصالح .

وفي القرآن آيات عديدة حول أخبار الأنبياء ومواقف أممهم منهم بأسلوب يوحى بان العرب الذين كانوا يسمعونها ليسوا غريبين عنها اي انهم كانوا يعرفونها او يعرفون اشياء منها ، كما تلهمه الآيات الآتية :

١ - واقد أهلكننا القرون من قبلكم لما ظالموا وجاءتهم رسالتهم بالبينات

وما كانوا يؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض

من بعدهم لئنظر كيف تعملون يونس ١٣ - ١٤

٢ - وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل

قريب نجب دعوتك وتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال .

وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا

لكم الأمثال ابراهيم ٤٤ - ٤٥

٣ - أفلم يهد لهم كم أهلكننا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في

ذلك لآيات لاولي النهى طاه ١٢٨

٤ - وقالوا لولا يأئتنا آية من ربه أولم تأتئهم بيئنة ما في الصحف الأولى

طاه ١٣٣

٥ - وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم

لوط . واصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم اخذتهم فكيف كان

نكير . فكأن من قرية أهلكتها وهي ظالمة فهي خاوية على عرشها وبئر معطلة

وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون

بها فأنها لا تسمى الأبصار ولكن تعى القلوب التي في الصدور . . . الحج ٤٢ - ٤٦

٦ - وعاداً وثموداً رقة تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم

فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين العنكبوت ٣٨

٧ - أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا

أشد منهم قوة وأثارها الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسالتهم بالبينات

فإن كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون الروم ٩

٨ - وإن لو طأ لمن المرسلين ، إذ نجيبنا وأهله أجمعين . الا عجزوا في الغابرين .
ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعفلون
المصافات ١٣٣ - ١٣٨

وفي القرآن آيات عديدة حكي فيها ردود ككفار العرب على الدعوة النبوية
والنذر القرآنية حيث كانوا يرون فيما يرون بأن ما يقال لهم ويتلى عليهم هو اساطير
الاولين كما ترى في الامثلة التالية :

١ - ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم
وقرأ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا
إن هذا الا اساطير الاولين
الانعام ٢٥

٢ - ولما اتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا الا
اساطير الاولين
الانفال ٣١

٣ - وقالوا اساطير الاولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا الفرقان ٥
كذلك في القرآن آيات حكي فيها تحدى العرب للنبي (ص) بأن يأتي بمثل ما جاء
به الانبياء كما ترى في الامثلة التالية :

١ - بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل
الاولون
الانبياء ٥

٢ - فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا
بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون القصص ٤٨
وفي مقدمة آيات قصة يوسف (ص) آية نصها « لقد كان في يوسف واخوته
آيات للسائلين » كما ان نزول قصة ذي القرنين كانت بناء على سؤال وجه الى النبي (ص)
عنه حيث جاء في مقدمتها هذه الآية « ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم
منه ذكراً » وفي آيات قصة أصحاب الكهف ما يليهم ان نزولها قد كان بناء على خوض
في شأنها : « سيقولون ثلاثة ورابعهم كلبهم ويقول خمسة وسادسهم كلبهم رجماً
بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعبدهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار
فيهم الا مراً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً » .

فهذه النصوص توحى بأن الذين كانوا يسمعون مايتلى من آيات القرآن
المحتوية اخبار الأمم والانبياء كانوا يعرفون هذه الاخبار اجمالاً أو تفصيلاً ، بل
وصل الامر فيهم الى ان قالوا إن النبي (ص) استكتبها فهي تلى عليه في الصباح
والمساء حتى يستظهرها ويتلوها عليهم ، والى ان قالوا إننا نعرف الذي يقوله وانلوا
نشأ لقلنا مثله لانه من قصص الاورلين واساطيرهم المعلومة . . .

ولقد احتوت كتب التفسير شروحاً وبيانات مسبهة حول القصص القرآنية
مروية عن الرواة وعلماء الاخبار والصحابة من عرب ويهود مسالمين مما يمكن ان
يستأنس بها على انها هي ايضاً مما كان يدور في عصر النبي (ص) ويثبتته حول تلك
الاخبار والقصص في الاوساط العربية والاطوساط الكتابية ، ولا يعقل ان تكون
جميعها مصنوعة بعد الاسلام .

وهذا الذي نقوله متسق مع الحكمة والمنطق ايضاً . فالقصص القرآنية انما
وردت كما هو واضح من أسلوبها وحكمة تكرارها وتنوعها وسياقها للعبارة والعظة
والتمثيل والتذكير ، وهذا انما يكون ابلغ أثراً ونفوذاً الى النفوس إذا كان في صدق
ما يعرفه السامع ويعترف به . واذا كان هناك بعض آيات وردت عقب قصة نوح(ص)
في سورة هود : « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك
من قبل هذا . . . » ٤٩ « وعقب قصة يوسف (ص) في سورة يوسف : « ذلك من
انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ اجمعوا امرهم وهم يمكرون . . . » ١٠٢
وعقب قصة مريم في سورة آل عمران : « ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما
كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون . . . »
فان الاولى ان يحمل هذا على مقاصد اخرى اسلوبية أو جزئية أو تعميمية اكثر
مما يحمل على الجهل التام للقصة اصلاً ولا موضوعاً . لاسيما وقصتنا نوح ويوسف(ص)
من القصص التي وردت في التوراة مفصلة والتقارب كبيرين ماجاء عنها في التوراة
وفي القرآن ، ولا يمكن ان يجهدا الكتابيون اذ ذاك كما ان من الراجح ان لا يجهدا
العرب او بعضهم وهم متصلون بهم .

فليس من التجوز في شيء أن نقرر والحالة هذه :

١ - إنه كان لأهل بيئة النبي (ص) العرب حظاً من المعارف والأخبار

التاريخية .

٢ - إنه من المعقول أن لا يكون هذا قاصراً على ماوردت اليه الإشارة بجملاً

أو مفصلاً في القرآن ، لان ما ورد هو ما اقتضت حكمة التنزيل وحيه للعظة والتذكير
ومن ذلك كثير مما نقله علماء الصحابة والأخبار والرواة ودونه المفسرون كشرح
وبيانات للقصص القرآنية مما لا يعقل ان يكون كله مصنوعاً بعد الاسلام على
ما ذكرنا آنفاً وبقطع النظر عن ما تحمله وقائمه من نقد وتوقف .

٣ - إن هذه المعارف والأخبار التاريخية ترجع الى مصدرين : الأول عربي

المكان والمنشأ والرواية مثل قصص عاد وثمود وسبأ ومدين ولقمان ، وقد يصح ان
يسلك في هذا السلك قصص ابراهيم (ص) التي لم ترد اليها أية اشارة في التوراة
والمتصلة بتقاليد عربية صرفة ، كاسكانه من ذريته في منطقة البيت الحرام ، وبنائه
هو واسماعيل الكعبة ، ووضعه تقاليد الحج ودعوته اليه ، ومواقفه مع قومه في
صدد اصنامهم وإلقائه في النار وسلامته منها الخ والثاني طاريء وهو ما جاء عن
طريق الجاليات الكتابية وكتبهم ورحلات العرب الى البلاد المجاورة واتصالاتهم
بأهلها مثل القصص التوراتية واليهودية والنصرانية الدينية وغير الدينية ، وامثال
قصص ذي القرنين ورستم واسفنديار الخ ، مما ذكر في القرآن طرف منه وما لم يذكر
حيث كان العرب في بيئة النبي (ص) يتداولون القصص العربية الاصل او المتصلة
بالتقاليد العربية جيلاً بعد جيل ، وحيث كانوا يتخذونها هي وما جاءهم من المصدر
الثاني قبل البعثة النبوية من وسائل تسميم وتدميرهم ، ويتناقشون فيها في مجالسهم .

- ١٤ -

بل نحن نذهب الى اكثر من هذا ونقول استنباطاً من القرآن انه يحتمل كثيراً

ان يكون عند العرب كتب وورق قد دونت فيها الأخبار والتعصر والمعارف

التاريخية قبل البعثة العربية وغير العربية قبل البعثة ، ولم يقتصر تناقلها على الاسنة

والصدر ، ولو لم يصل اليها منها شيء ، وذلك من تكرار تعبير « أساطير الآءواين »

من كفار العرب كل ما تلا النبي (ص) عليهم القرآن . وهذا التعبير وإن كان يطلق على أقاصيص الأولين فإننا نميل الى الاعتقاد أنه ينطوي على معنى كتابات الأولين إن لم نقل ان هذا هو القصد منه ، وان اطلاقه على الاقاصيص القديمة او الخرافية هو اطلاق متأخر ، ولا سيما اذا لوحظ أن « اساطير » من « سطر » وان « سطر » تعني الكتابة وقد استعملها القرآن كذلك في آيات سرتوي الطور ١-٣ والقلم ١-٢ التي نقلناها في مناسبة قريبة ، ولعل في آية الفرقان الخامسة التي نقلناها قبل قليل قرينة قوية على صواب ماقررره حيث احتوت حكاية قول الكفار إن النبي (ص) كان يستكتب اساطير الأولين ويحفظها ثم يتلوها عليهم مما يلهم أن كتابة الأخبار والقصص ليست مجهولة عند العرب وأن هناك اشياء مدونة منها كانت وسيلة لزعم مازعمه الكفار بالنسبة للنبي (ص) . وقد ذكر ابن هشام (١) خبرين معينين يصح أن يستأنس بهما في ماقررره الاول ان النضر بن الحرث الذي كان يخاف النبي (ص) في مجالس دعوته ويقص على الناس اخبار رستم واسفنديار كان يقول: « والله ما حديثه بأحسن حديثاً مني وما حديثه إلا اساطير الأولين اكتبها كما اكتبتها » . والثاني « ان سويداً بن الصامت اتى النبي (ص) في موسم فدعاه الى الاسلام فاجابه لعلك تدعو الى ما في هذه المجلة ثم اخرج مجلة لقمان وعرضها عليه » .

- ١٥ -

وفي القرآن آيات كثيرة تشير الى البحر واسفاره والرياح الطيبة والرياح العاصفة والرياح العاصفة وكذلك الى الاسفار والرحلات البرية التجارية وغير التجارية والسبل والفتاح والعلامات التي يهتدى بها في الاسفار مما نقلنا منه شيئاً كثيراً في الفصول السابقة وما نورد منه ما يلي مما لم ننقله :

- ١ - الذي جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً ... طاهها ٥٣
- ٢ - وجعلنا في الأرض رواسي ان تמיד بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لهمم يهتدون ... الانبياء ٣١

(١) ج ١ ص ٣٢٣ وج ٢ ص ٢٧-٢٨

٣ - هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناسكها واكلوا من رزقه

الملك ١٥

واليه النشوء ...

فتلك الآيات وهذه وما يسلك في سلكها تدل على كثرة الأسفار البرية والبحرية التي كان يقوم بها الحجازيون قبل البعثة والتي رجحنا ان تكون قد تجاوزت في البحر سواحل البحر الأحمر الى سواحل الحبشة وغيرها من افريقية الشرقية وآسيا الجنوبية، وان تكون رحلاتهم في البر قد تناولت العراق وفارس والشام ومصر وربما بلاد الروم في آسيا الصغرى . وليس من المعقول ان يكونوا قد تمسوا بهذه الاسفار واكثروا منها إلا وقد تمسوا بالمعارف الضرورية للملاحة سواء من حيث الطرق البحرية ومهاب الرياح ، او من حيث الموانئ والثغور والاقطار والمدن التي كانوا يصلون اليها او يمرون بها ويتجرون معها ، وبكلمة اخرى لابد من ان يكون قد حصل عندهم ما نستطيع ان نسميه بالمعارف الجغرافية سواء منها الطبيعية او الاقتصادية او الاجتماعية ، وسواء منها البرية او البحرية . وفي ما انتهينا الى تقريره من معارف العرب التاريخية ما يدعم هذه النتيجة التي انتهينا اليها هنا دعماً قوياً ايضاً . فالعرب الذين حصت عندهم هذه المعارف لابد من ان يكون قد حصلت عندهم معارف جغرافية متنوعة عن البلاد والمواقع التي كانوا يتداولون اخبار اممها ووقائعها بطبيعة الحال .

- ١٦ -

كذلك في القرآن آيات عديدة ذكر فيها الشمس والقمر ومنازل القمر وفلك الشمس والقمر وحركاتها وما في ذلك من علم السنين والحساب، وذكر فيها كذلك النجوم وحركاتها والاهتداء بها في ظلمات البر والبحر في الاسفار الاليلية التي هي أهم اسفار العرب في الجزيرة او أعمها بسبب شدة الحرارة وصعوبة السفر في حرارة القيظ في النهار ، بل ذكر في بعضها اسم كوكب بعينه عد الشمس والقمر كما ترى في الآيات التالية :

١ - يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ... البقرة ١٨٩

٢ - فلق الاصباح وجعل لكم الليل سكناً والشمس والقمر حسباً لذلك تقدير

م - ١٩

- ٢٨٩ -

العزيز العليم ... الأنعام ٩٦

٣ - وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا

الآيات لقوم يعلمون ... الأنعام ٩٧

٤ - هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد

السنين والحساب ... يونس ٥

٥ - وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره .

النحل ١٢

٦ - واتق في الارض رواصي ان تميد بكم وانهاراً وسبلا لعلكم تهتدون .

وعلامات وبالنجم هم يهتدون ... النحل ١٥ - ١٦

٧ - وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون .

الانبياء ٣٣

٨ - ألم تر أن الله يوبخ الليل في النهار ويوبخ النهار في الليل وسخر الشمس

والقمر كل يجري الى أجل مسمى ... لقمان ٢٩

٩ - والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه

منازل حتى عاد كالعرجون (١) القديم . لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا

الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ... ياسين ٣٨ - ٤٠

١٠ - وانه هو رب السموى ... النجم ٤٩

١١ - فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس (٢) . والليل اذا عسعس . والصبح

اذا تنفس ... التكوير ١٥ - ١٨

١١ - فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق والقمر اذا اتسق ...

الانشقاق ١٦ - ١٨

(١) العرجون القديم : غصن النخلة اذا تقادم ويبس وصفه ، والتشبيه هو

تشبيهه للقمر في أواخر مظهره الشهرية .

(٢) الجوار : اي السيارة . الكنس : جمع كنساء وهي الحجوبة او الختفية .

الخنس : جمع خنساء وهي النجوم التي تأتي ثم تكرر راجعة .

واسلوب هذه الآيات التي جاءت في معرض التذكير بنعم الله أو التنويه بعظمة الله يدل على ان الذين يسمعونها يفهمون دلالاتها ، وبالتالي يدل على ان العرب في بيئة النبي (ص) وعصره كانوا على شيء من العلم بمواقع النجوم وحركاتها وبعض اسمائها، وانهم كانوا ينتفعون من علمهم هذا في اسفارهم وحلمهم وترحالهم ومواقيتهم واسفارهم، وكانوا يقدرون حركتي الشمس والقمر وينتفعون بهما في حساب المواسم والايام وبكلمة أخرى انهم كان عندهم شيء من المعارف الفلكية (١) . هذا مع القيد الى اننا لا نذهب الى القول ان ما كان عند العرب من هذه المعارف مماثل لما كان في عهدهم اوقبله عند اليونانيين من المعارف الفلكية التي كانت لها عندهم قواعد وحدود عامية ؛ وانما يرجح انها كانت معارف اولية مستمدة من تجاربهم واسفارهم ومشاهداتهم .

- ١٧ -

وما دفنا في صدد الكلام عن معارف العرب التي تدل على قواهم العقلية ومظاهرها فان من الحق ان نقرر انه لا يعقل إلا أن يكونوا قد ألموا او المت طبقة منهم بطبيعة الامراض ومعالجتها والعقاقير واستعمالها بالتجربة والمشاهدة أو بالاعتباس من البلاد المجاورة ، مما يصحح أن يسمى « المعارف الطبية » ولو لم يكن في القرآن الا اشارة عابرة بسبيله وهي التي وردت في احدى آيات النحل عن العسل :

ثم كلي من كل الثمرات فاسلك سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف
الوانه فيه شفاء للناس . . .

(١) من الممكن ان يشار بهذه المناسبة الى تقسيمات البروج واسمائها العربية وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والذئب والحوت والى منازل القمر واسمائها العربية وهي السرطان والبطين والنجم والثريا والدبران والهفعة والهنة والذراع والبشرة والطرف والجبهة والفرنان والصفرة والعواء والسمك والقفر والزباني والا كليل والقلب والشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الأخبية وفرع الذئب المقدم وفرع الذئب المؤخر حيث يدل هذا كذلك على عناية العرب بحركات النجوم ورصدها

ونبّه على ان الروايات والتراجم احتوت أسماء عدد من العرب أشهرها والمعاطاة
الطب قبل البعثة وفي اثنائها .

- ١٨ -

كذلك فان حياة العرب القبيلية تجعل من السائع أن يقال إنهم لا بد من ان
يكون قد نشأ فيهم طبقة قد ألت الماءً واسعاً في الانساب وتسلسل القبائل
والعشائر والبطون والبيوت وتطوراتها ومحافظاتها وولائها لان ذلك من مستلزمات
هذه الحياة مما يمكن وصفه بعلم الانساب ، ولو لم يكن قد ورد في القرآن مما يمت
الى هذا الاشارات عابرة في آيتين وهما :

١ — فاذا نفض في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . . .

المؤمنون ١٠١

٢ — يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل

لتعارفوا . . . الحجرات ١٣

وهذا القول يمكن تكراره بما يتعاقب بهاب الرياح والأتواء والامطار
ومساقط المياه وبما يتعلق بقيافة الاثر ولو لم يمكن الاستناد في تقرير معارف العرب
هذه الشؤون الى نصوص قرآنية صريحة .

أما معارفهم الزراعية فلا نشك في انها كانت وفيرة . وقد أشرنا الى ذلك بشيء
من الأسياب واستعرضنا الآيات القرآنية الواردة في هذا الصدد في احد فصول
الباب الاول . كذلك كانت معارفهم الحسابية ايضاً مما بحثناه في مبحث خاص في
احد فصول الباب المذكور ، فنكتفي بالاشارة الى ذلك .

- ١٩ -

واذا اردنا ان نجعل ما قلناه في الابحاث المتقدمة وان نرسم صورة للعرب في

عصر النبي (ص) ويئته قبل البعثة بالنسبة للعلوم والمعارف يمكننا ان نقول :

١ — إن القراءة والكتابة كانتا منتشرتين انتشاراً محسوساً وانه لا يبعد ان

يكون في البادية افراد قد ألموا بهما .

٢ — إن من العرب من كان يلم ببعض اللغات الاجنبية ويطلع على ما عند

أصحابها من كتب دينية وغير دينية .

٣ - إن العرب كانوا ملهمين بأخبار الأمم وقصص الأنبياء ، وإنه كان عندهم كتب وصحف ورقوق ومجلات فيها أخبار ومعارف تاريخية ، وإن من هذه الأخبار والمعارف ما هو عربي الأصل والمكان ومنها ما هو اقتباس .

٤ - إن العرب كانوا ملهمين بمعارف جغرافية وفلكية وطبية بعض الأئمام القائم على المشاهدات والتجارب .

٥ - إن العرب كانوا ما هرين بالانساب والقيافة ومهاب الرياح والأنواء .

٦ - إن معارفهم الزراعية والحسابية كانت غير ساذجة وبسيطة .

وهذه الصورة تسوغ القول بأن قوى العرب العقلية قد تأثرت بهذه المعارف المتنوعة ، وأنهم قد قطعوا في مضمار الحضارة العقلية والثقافية اشواطاً لا بأس بها ولو لم يلحقوا بها أهل البلاد المجاورة لهم .

— ٢٠ —

ونريد أن نلحق بهذا الفصل موضوعي الكهانة والسحر في عصر النبي (ص) ويئتمه قبل البعثة لأن لها في ما نرى صلة بمتناوله على اعتبار أنها من العلوم والمعارف النفسية ، وأنها على هذا الاعتبار يمكن أن يعدا مظهر من مظاهر القوى العقلية عند العرب .

ولقد كان للكهانة والسحر عند العرب شأن غير يسير ، وتأثير غير قليل في أذهانهم ومشكلاتهم النفسية والروحية . وكان العرب ينظرون إلى الكهان خاصة نظرة احترام وتقدير ، ويرون فيهم أطباءهم الروحيين ، يفرعون إليهم في كل ملة نفسية ، ومشكلة روحية تطرأ عليهم وتحدث لهم ازعاجاً وظلماً واضطراباً ، وينشدون لديهم الطمأنينة والمعرفة . فإذا رأى أحدهم رؤيا رهيبة فزع إلى الكاهن ليعبرها له ، وإذا وقع بينهم خلاف على بعض الأمور الغامضة رجعوا إلى الكاهن لحله ، وإذا حدث أمر خطير جرى أو أرضى أخاف الناس تهافتوا إلى الكهان يستنبؤونهم الغيب ويطلبون عندهم التفسير والتعليل .

وقد وردت كلمة « الكاهن » في القرآن في آيتين تنفيان عن النبي (ص) الكهانة

التي كان كفار العرب ينسبونها اليه وهما :

١ — فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ... الطور ٢٩

٢ — ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ... الحاقة ٤٢

وليس في القرآن غير هاتين الآيتين يمكن أن تساعد على رسم صورة واضحة للكاهن عند العرب . غير أن نسبتهم الكهانة إلى النبي (ص) لم تكن بطبيعة الحال إلا لأنهم رأوا مشابهة ما على زعمهم بينه وبين الكهان . ويستفاد مما جاء في الروايات العربية عن الكهانة والكهان :

اولاً — إن الكهانة ليست مظهراً دينياً عند العرب .

ثانياً — إن الكهان كانوا يرسلون أقوالهم وإجاباتهم على أسئلة السائلين بالاسلوب المسجع الزنان، ويضمنونها بعض التوريات التي يجد فيها السامع احياناً تفسيراً لما في نفسه .
ثالثاً — إنهم كانوا يحدثون الناس عن المغيبات والمستقبل فيما يرسلونه من الكلام الغامض المسجع المحتوي التوريات .

رابعاً — إنهم كانوا يتوهمون الناس أو أن الناس كانوا يتوهمون ، ولعل الكهان انفسهم ايضاً كانوا يتوهمون بسبب ما كان يجري على لسانهم من سجع وتوريات أن لهم تابعين من الجن يساعدونهم في مهمتهم ، وأن هؤلاء التابعين كانوا يسترقون السمع ويخطفون الاخبار من السماء ويلقونها في روع الكهان فينطق هؤلاء بها . وتلفت النظر إلى ان بعض الآيات القرآنية قد أشارت إلى اختطاف الشياطين اخبار السماء واستراقهم السمع كما ترى في الآيات التالية .

١ — ولقد جعلنا في السماء بروحاً وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ... الحجر ١٦-١٨

٢ — إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظنا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملاء الأعلى ويُقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ... الصافات ٦-١٠

٣ — وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ... الجن ٨-٩

٤ — ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير .

وعلى هذا فتكون المشابهة التي رأها الكفار بين النبي (ص) وبين الكهان هي ما كان النبي (ص) يتلوه من الآيات القرآنية المسجعة الرنانة او المتوازنة ، ولا سيما في اوائل بعثته ، واكثر الآيات المسجعة كانت في اوائل البعثة ، وما كان يخبر به من أخبار المستقبل والبعث والحساب والجنة والنار وصلته بالله والسماء والملائكة ، وتنزيل القرآن على قلبه بواسطة الملائكة .

وسياق الآيتين اللتين وردت فيهما كلمة « الكاهن » وروحها يمكن ان تجعل صورة الكاهن العربي وفق ما ذكرناه مما او ضحته الروايات .

ولقد نقلت الروايات اخباراً كثيرة عن الكهان والكاهنات ، ورجوع الناس اليهم في الملمات والمشاكل والاعلام كما انها نقلت اسماء عدد منهم ونماذج من اقوالهم (١) . ومهما كان من شأن هذه الروايات فإنها بالاضافة إلى النص القرآني الحاسم الذي يلهم وجود هذه الطبقة تصح أن تكون دليلاً على ما كان لها في اذهان العرب من صورة قوية مؤثرة ، وما شغلته عندهم من الحيز الكبير والاهتمام العظيم حتى كان من امرهم ان جنحوا إلى تعليل مظهر النبوة في النبي (ص) بالكهانة وسلكه في سلك الكهان لما رأوه من المشابهة بينه وبينهم .

وعلى هذا فنحن على حق إذا عددنا الكهانة طوراً من اطوار العقل العربي ومظهراً من مظاهر قواه ولو كان هذا ليس خاصاً بالعرب من جهة وقاصراً على طبقة قليلة الافراد من جهة اخرى . فان مثل هذه الدعوى والاضطلاع بها ، واستهواء الناس اليها على اختلاف طبقاتهم ودون استثناء الزعماء والناهبين لا يمكن أن يكون إلا من افراد وهبوا حدة ذكاء ، وسعة حيلة ، وقوة عقل وقدرة على التصرف في فنون الكلام . ولعل بمض هؤلاء كانوا يعتقدون فعلاً بسبب ما أوتوه من مميزات وقوى انهم متصلون بالجان ومساعدون منهم على ما كان سائداً في اذهان العرب من اتصال هؤلاء بالنوابغ والباقرة . وايس من التجوز أن يقال إن وجود

(١) ابن هشام مثلاً ج ١ ص ١٤-١٧ و ١٣٥-١٤٤ و ١٩٤-٢٠١

افراد متصفين بصفات مثل هذه في أمة ما في احد عصورها يصح ان يذكر كظاهرة من قوة تلك الأمة العاقية في ذلك العصر ؛ لا سيما إذا كان إلى جانبها طبقات اخرى متميزة بظواهر مماثلة كما هو شأن العرب في عصر النبي (ص) وبيئته على ما جاء في الفصول السابقة ويجيء في الفصول اللاحقة .

- ٢١ -

اما السحر والسحرة فقد جاء ذكرهم في آيات كثيرة ومناسبات متنوعة :

منها ما ورد في قصة موسى (ص) وفرعون كما ترى في الامثلة الآتية :

١ - قالوا يا موسى إما أن تلتقي وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا

سحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ... الاعراف ١١٥-١١٦

٢ - قالوا يا موسى إما أن تلتقي وإما ان نكون اول من ألقى . قال بل القوا

فاذا جبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسمى ... طاه ٦٥-٦٦

ومنها ماورد في معرض حكاية اقوال الكفار ونسبتهم السحر الى النبي (ص)

احياناً واعتبارهم دعوته وما يعده ، القرآن من بعث وحشر وحساب وجنة واز

سحراً كما ترى في الامثلة التالية :

١ - ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن

هذا إلا سحر مبين ... الانعام ٧

٢ - أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل منهم أن انذر الناس وبشر الذين

آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ... يونس ٢

٣ - وائتت قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا

إلا سحر مبين ... هود ٧

٤ - ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظالوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت

أبصارنا بل نحن مسحورون ... الحجر ١٤-١٥

٥ - إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ... الاسراء ٤٧

٦ - لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم

أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ... الانبياء ٣

٧ - وقالوا إن هذا إلا سحر مبين • أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا

لمبعوثون . . . الصفات ١٤ - ١٦

٨ - وإن يرو آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . . . القمر ٢

ومنها ماورد في معرض التنديد باليهود واتباعهم اقوال الشياطين، وما كان من خبر سحر هاروت وماروت في بابل كما جاء في آية البقرة (١٠٢) التي نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول .

ومنها سورة الفلق التي تأمر بالاستعاذة من النفاثات في المقدم التي هي أعمال سحرية على ماذهب اليه جمهور المفسرين :

«قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر

النفاثات في المقدم . ومن شر حاسد إذا حسد . . . »

وهذه الآيات ليست كل الآيات التي ورد فيها ذكر السحر والسحرة . فان عدد هذه الآيات يبلغ نحو الحسين . ومن الغريب انه بينما لم يذكر الكهان إلا في آيتين فان الروايات التي تروي أخبار الكهانة والكهان واقوالهم واسماءهم كثيرة ، وبينما لم يرد في الروايات شيء كثير عن أخبار السحرة والسحر وأعمالهم ورد ذكرهم في هذا العدد الكبير من الآيات القرآنية .

ومهما يكن من أمر فان ترديد بعض كلمات السحر والساحر والمسحور والسحرة في القرآن وحكاية اقوال الكفار في نسبة السحر الى النبي (ص) دليل حاسم على ان العرب قد عرفوا السحر والسحرة قبل البعثة ، وأن هذا المظهر من مظاهر القوى العقلية كان موجوداً عندهم •

ومن الممكن استلزام الآيات القرآنية في التعرف على ما كان السحرة يقومون به من اعمال أو على ما كان في اذهان العرب في صدر السحر والسحرة من صور كما يلي :

اولاً إنه كان مفهوماً إن بين الشياطين والسحر والسحرة صلات المعلم والمتعلم

وإن الساحر يقدر ان يفرق بين المرء وزوجه (آية البقرة ١٠٢) •

ثانياً إنه كان مفهوماً أن الساحر يستطيع ان يخيل لأرائي الاشياء على غير حقيقتها

وأن يبعث الخوف والرهبه في نفوس الناس (آيات الاعراف ١١٥ ١١٦ وطاهاه ٦٧ ٦٨)
ثالثاً إن العرب كانوا اذا ماسمعوا شخصاً يتكلم بأمور لم يكونوا رأوها او
اعتادوها او سمعوها وفيها بعض الامور الغامضة او الجديدة الخارقة اعتبروه أنه واقع
تحت تأثير السحر وقالوا إنه مسحور .

رابعاً ان العرب كانوا يعتبرون احياناً مايقع من الخوارق على ايدي البشر سحراً
ولو لمسوه بأيديهم ورأوه بأعينهم .

خامساً إنه كان من جملة اعمال السحرة عقد العقد والنفث عليها اي تلاوة
بعض الكليات السرية او الموهمة ذلك عليها .

سادساً إن من اليهود من كان يتعاطى اعمال السحر .

فإذا اردنا بعد هذا البيان ان نرسم صورة للساحر استطعنا ان نرسمها قريبة من
صورة الكاهن ، من حيث هو شخص أوتي ذكاءً حاداً وقدرة على التصرف ،
وسعة في الحيلة ، وقوة على الايها بالاتصال بالجان واستخدامهم في متنوع الاغراض ،
وعلى التأثير في القوى الانسانية واستهواغها بحيث يخيل لها وجود مالا وجود له
ووقوع ما لم يقع . ويقال في السحرة ماقلناه في الكهان من احتمال توهم بعضهم اتصال
الجان بهم ومساعدتهم إياهم على اعمالهم بسبب ما يبدو لهم في أنفسهم من قوى واستعداد
جريباً على عقيدة العرب بالاتصال بالجان بالنوابع والعباقرة .

وعلى هذا يصح ان يعد السحر كما سبق القول عن الكهانة طوراً من اطوار
العقل العربي ومظهراً من مظهر قوى العرب العقلية .

— ٢٢ —

هذا ، ويحسن قبل ان ننتهي من هذا الفصل ان نشير الى كلمة « الحكمة » التي
وردت في آيات كثيرة ، منها مايتصل بالانبياء (ص) ومنها مايتصل بعمة النبي (ص)
ومنها ما هو بسبيل التنويه بها اطلاقاً كما ترى في الامثلة التالية :

١ — ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتاوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب
والحكمة ويزكيهم . . . البقرة ١٢٩

٢ — يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً البقرة ٢٦٩

٣ - ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولاً الى بني اسرائيل

آل عمران ٤٨ - ٤٩

٤ - ما كان ابشر أن يؤتية الله الكتاب والحكم (١) والنبوة ثم يقول للناس

كونوا عباداً لي من دون الله

آل عمران ٧٩

٥ - وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل

الله عليك عظيماً

النساء ١١٣

٦ - ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة (٢)

الاسراء ٣٩

٧ - ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي

أحسن

النحل ١٢٥

ويستلهم من الآيات بوجه الاجمال ان الحكمة هبة عقاية يكون صاحبها بها

راجح العقل صائب الحكم محكم الرأي ، مستلها الخير والحق والرشد في مايقول

ويفعل ، وانها مظهر من مظاهر رجحان العقل ، وحسن البصيرة والتصرف

والنضوج ، وسلامة الضمير والذوق ، وحب الخير والحق ، والعزوف عن

الشرور والرعونات . والآيات وإن لم تكن لها صلة مباشرة بحالة العرب قبل البعثة

فان ورود الكلمة في القرآنا مرات كثيرة نحمل هذه المعاني يسوغ القول أن معناها

ومداها مما كان مفهوماً عند العرب ، وان منهم من كان متصفاً بهذه الاوصاف ،

يرجع اليهم في مدلهات الخطوب ، وعويصات المشاكل ، فيصدرون عن عقل راجح

وفكر ناقب ، وقلب زكي ، ورأي محكم ، وبالتالي يسوغ القول ان هذا الطور من

اطوار القوة العقاية كان موجوداً في العرب في بيئة النبي (ص) وعصره قبل البعثة .

ولقد سمى الاخبار بعض رجالاتهم فعلا مثل الاكثم بن صفي صاحب الامثال

والحكمة والاقوال التي سارت أمثالا بما فيها من رأي ناضج وفكر ناقب . واذا صح

ان لقمان من العرب ونحن نرجح هذا فهو مثل آخر يتدنا به القرآن ، حيث جاء ذكره

(١) الحكم = الحكمة (٢) هذه الآية تعقيب على سلسلة الودايا القرآنية الجميلة

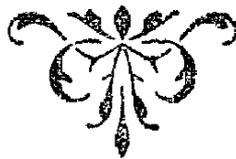
الشأن الواردة في سورة الاسراء (٢٢ - ٢٩) التي هي اسمي مصداق لما ذكرناه

بما تلهمه الآيات عن معنى الحكمة .

وذكر حكمته في آيات من سورة لقمان فيها المواعظ الحكيمية المتسقة مع الوصف الذي وصفناه كما ترى فيما يلي :

ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد . واذ قال لقمان لابنه وهو يرضاه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم . ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنأ على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك الي المصير . وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من اناب الي ثم الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واحبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرماً إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير . . .

١٢ - ١٩



الفصل الثالث

مواقف المشاقة ودلالاتها على قوة العرب العقلية

دلالة المشاقة ووجهة هذا الفصل — ما في القرآن من صور لها — بحث في المشاقة ودلالاتها على قوة عقل العرب — المشاقة في العهد المبكى — صور من الآيات القرآنية عنها — في العهد المدني — صور قرآنية المشاقة فيه .

— ١ —

في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً تشير إلى مواقف المشاقة والمعارضة والمناوأة التي كان يقفها العرب من النبي (ص) ككفاراً ومنافقين ، وتحكى اقوالهم وافعالهم ، وتصف مكرهم ومكائدهم وحجاجهم ولجاجهم .

والمشاقة والمعارضة في كل زمن وهدف ومهما كان امرها تنطوي على شيء من الحيوية والقوة العقلية التي تدفع اصحابها إلى الوقوف من معارضتهم وخصومهم تلك المواقف ؛ سواء أكان ذلك بدافع العقيدة والايان أم بدافع الأتانية والطمع والطموح ، أم بدافع الاستكبار والحسد والعناد واللجاج . فان كل ذلك لا يمكن أن يبدو من أناس اغبياء غافلين ، وضعفاء خاملين . وبقدر ما يكون عليه موضوع المعارضة والمشاقة من خطورة ، وما يكون الطرفان عليه من قوة مادية او عقلية او نفسية تكون النتائج والمظاهر بطبيعة الحال .

هذا ما جعلنا نعقد هذا الفصل في هذا الباب ، ونستعرض شيئاً مما جاء في عدد مواقف الكفار والمنافقين من أهل بيئته النبي (ص) من الآيات القرآنية لتبين ما كانت عليه قوى العرب العقلية من هذه الناحية ايضاً . ولا نشك في ان هذه المواقف تصالح لتكون مقياساً لهذه القوى ، ومظهراً من مظاهرها .

والذي يتبع في الآيات القرآنية يحد فيها صوراً كثيرة لتلك المواقف ، حيث يحد صوراً للجدل العنيف والخصومة العنيدة ، وصوراً للجاج واللجاج والمكارة ،

وصوراً للمكر والدس والاحراج في المسائل والمطالب والمشاكل ، وصوراً للإنانية والاستكبار والسخرية والاغراء والاغواء . وفي طيات هذه الصور القرآنية تلمح عقلية قوية ، وشعوراً شديداً بالذاتية والكيان ، ونفسية طماحة طماعة ، ودفاعاً عن تة أيد ومصالح تراءى لأصحابها أنها مهددة ، وعناداً ناشئاً عن استكبار وذاتية وعقل و ليس عناد الغبي الغافل ، والضعيف الخامل ، والأحمق الجاهل .

ولهذا فمن الحق ان يطيل الباحث النظر في هذا المواقف والصور ، حيث يرى فيها مظهراً قوياً من مظاهر القوى العقلية في أهل بيئة النبي (ص) وعصره ، وخاصة في المدن ، وبنوع أخص في الطبقات التي تولت قيادة المشاكلة والمعارضة والتي عناها القرآن في هذه الآيات :

١- وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتينا رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ... الانعام ١٢٣ - ١٢٤

٢ - وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ... البقرة ١٢ - ١٣

وإذا لاحظنا ان هؤلاء المشاقين الكفار والمنافقين قد كانوا رجالاً بلغوا أشدهم وبرز أكثرهم في بيئته في مختلف المناحي قبل البعثة النبوية حتى لنا ان نرى ان المظهر القوي الذي تمثله مواقفهم تقوهم العقلية إنما تمثل في الحقيقة مظاهر القوى العقلية قبل البعثة ، وحينئذ يتسق بحسنا من هذه الناحية .

- ٢ -

ولقد يقال في هذه المناسبة إن الماراة والمعارضة لما جاء به النبي (ص) من الدعوة المؤيدة بقوة الله وروحانية الحق والمنطوية على صدق الالهجة ونصاعة الحججة لا تكون من اناس أقوياء العقول والمدارك ؛ ومع أن هذا هو الذي كان يدفع بعض المؤلفين قديماً وحديثاً الى الخط من تلك العقول والمدارك ، وتصوير عهد

ما قبل البعثة تصويراً قائماً يتخبط اهله بالجهل والظلماء ، ويرتكسون في الانحطاط والتوحش نديناً وتأثماً ، وذهاباً الى ان هذا الوصف هو الذي يتسق مع مهمة الرسالة النبوية التي ارادها الله لاخراج الناس من الظلمات الى النور ؛ في حين :

(١) إن هذه الظلمات المعنية هي ظلمات الشرك والوثنية والانحرافات الاخلاقية والاستغراق في شهوات الدنيا وملاذها ، وضيان الآخرة وحسابها وعذابها ونعيمها ، وايست ظلمات الجهل والتوحش وانحطاط المدارك والقوى العنقية كما يمكن ان يفهم ذلك من سياق الآية التي تذكر تلك المهمة النبوية:

«الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً اوانك في ضلال بعيد . وما أرسلناه من رسول الا بلسان قومه ليرين لهم فيفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم .

ابراهيم ١ - ٤

و (٢) إن العقائد الدينية في الناس في الاعم الاغلب تكون وراثية وتقائدية واسان حالهم يقول كما وصف القرآن ذلك :

«بل قلوا انا وجدنا آباءنا على أمة (١) وانا على على آثارهم مهتدون . وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون»
الزخرف ٢٢ - ٢٣

و (٣) إن الاهتداء الى الدين التويم يحصل بهداية ربانية وانسراح الصدر وباعداد او استعداد نفسي كما جاء في آيات سورة ابراهيم السابقة وفي آيات كثيرة منها هذه الآية :

«فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضاهه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصمّ في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون.

الانعام ١٢٥

(١) على طريقة او حالة

و (٤) إن العقائد الباطلة او المنحرفة يمكن أن تكون عند أقوى العقول والمدارك ، والمترقين في مدنيتهم وعلومهم وثقافتهم كما يعرف ذلك بالبداهة والواقع السابق والحاضر . ففي كل زمن ومكان وجدت أديان مختلفة ، ولا يكون الحق إلا في واحد ، ومع ذلك فالذين لم يكونوا من ذلك الواحد الحق ايسوا دائماً اغبياء منحطين ، وهمجاً جاهلين ، بل كثير منهم يفرقون في عقولهم ومداركهم ومدنيتهم وعلومهم كثيراً من الذين هم من ذلك الواحد الحق ؛ وهذا مشاهد محسوس لا يمكن المراء فيه .

ولقد وقف اليهود وبعض النصارى في بيئة النبي (ص) موقفاً مماثلاً لموقف كفار العرب، ووجدوا رسالته وناوئوه وكادوا له، ولم تكن الحملة عليهم ولا سيما على اليهود بسبب جهلهم وضعف مداركهم لان هذا لم يكن ليقال عنهم ، وقد استشهد بهم القرآن المكي على صحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآني ، وإنما بسبب كفرهم ومكرهم عناداً وحسداً واستكباراً بينما كانوا يعرفون أن رسالة النبي (ص) حق ومصدقة لما معهم كما جاء في آيات كثيرة نقلناها في الفصل الثالث من الباب الاول . و(٥) إن الآيات الفرآنية التي سنستعرضها في هذا الفصل تحتوي البراهين القاطعة على أن إصرار كفار العرب على كفرهم ومواقفهم الكيدية والمكرية والشقاقية التي وقفوها ولا سيما اهل المدن وبنوع خاص زعمائهم وكبرائهم وأغنيائهم لا يمت الى سبب الجهل والغباء والخطا المدارك ، وإنما يمت الى العناد واللاجاج والحسد والغرور والانانية وخشية فقدهم منافعهم وامتيازاتهم مرا كزهم ونفوذهم

— ٤ —

يضاف الى هذا كله أن كثيرين ممن وقفوا موقف المشاققة والمعارضة مدة قصيرة أو طويلة ولا سيما في مكة قد اساموا ، وكانوا فيما تولوه بعد الاسلام من أعمال الحرب والفتح والحكم والسياسة والادارة والقضاء مثلاً في البقرية والدهاء وسعة الحيلة وحسن التصرف ، وعظمة النفس وبعد النظر، امثال عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ويزيد بن ابي سفيان ومعوية بن ابي سفيان والمغيرة بن شعبة رضوان الله عليهم وغيرهم وغيرهم ؛ وطبيعي أن هذه الصفات لم تكن

مفقودة فيهم ، ولم تكن الأهلوية التي اضطلموا بقوتها باعباء مهامهم الكبيرة ونجحوا فيها ذلك النجاح الباهر عفو الساعة ، وإنما كانت فيهم من قبل نامية أو كامنة ، وكان كثيرون منهم بارزين وذوي شأن في بيئتهم .

وهذا عدا كبار الصحابة الذين كانوا السابقين الى الاسلام، واطهر والكفايات العبقرية في الحكم والادارة والقيادة والقضاء كابي بكر وعلي وعثمان وأبي عبيدة وسعد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وجعفر بن ابي طالب رضوان الله عليهم وغيرهم الذين نشأوا في تلك البيئة وكان أكثرهم قد بلغ أشده قبل البعثة ، ومنهم من كان بارزاً ذا شأن في قومه ايضاً .

فبيئته ينبت فيها مثل هؤلاء العقلاء الحكماء الاقوياء في نفوسهم وقلوبهم لا يصح ان تعتبر بطبيعة الحال متوحشة همجية منحطة المدارك والقوى العقلية .

وتحسن الاشارة بهذه المناسبة الى أن عن أمثال هؤلاء وآبائهم صدر كثير من تقاليد الحج والاثهر الحرم وغيرها من التقاليد الاجتماعية التي أقر الاسلام كثيراً منها إما على حاله أو بعد شيء من التهذيب ، وقد انطوت من دون ريب على فوائد ومنافع وغايات بعيدة المدى تدل على البصيرة الصائبة والنظر الثاقب والعقل الراجح . وكذلك تحسن الاشارة ايضاً الى ان اللغة العربية القرآنية كانت لغة هؤلاء وامثالهم وآبائهم الاقربين ، وهي اللغة التي وصلت الى أسمى الطبقات واروعها فصاحة وبلاغة وقوة بيان وتفنن أسلوب وغزارة مادة وبراعة صرف ونحو واشتقاق وبديع ، والتي استدلنا بها على ما كان عليه اهل بيئة النبي (ص) وعصره من عقل حي وذهن وقاد ، واحساس مرهف وذوق سابغ ، وبصيرة نافذة .

ونذكر القارئ بما قلناه في الفصل الأول من هذا الباب من أننا لسنا منفردين بهذا القول ، وقد قاله قبلنا كثير من المفسرين ، وقد نقلنا اقوال ثلاثة من أجلهم ...

— ٤ —

ومواقف المشاقة والمعارضة التي وقفها العرب كانت في عهد مكة والمدينة على السواء . والقرآن المكي يمثل الاول كما ان القرآن المدني يمثل الثاني .

وأقصد كآل الأول هو الأشد أذى والأبعد نكاية ، لأن أهل مكة كانوا في موقف القوى العزيز الجانب ، وكان المسلمون في حالة القلة والضعف التي أشارت إليها إحدى آيات الانفال المذكورة :

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره وورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون . . . » ٢٦

وقد ثبت الله نبيه (ص) فضل يحمل المهمة العظيمة التي اختارها الله لها ، ولم يبال ما لقيه مقدرًا خطورة هذه المهمة تقديرًا جعله قوي النفس قوى القلب قوى الجلد ، أشد ما يكون رباطة جأش وثبات جنان ، وقوة عزيمة ، ومضى في المهمة إلى النهاية ، فخاصية الزعماء والاغنياء والوجهاء والكبراء والنهلاء عداة شديدة أعدته اللجاج والحجاج والجدل والسخرية والاحراج والتكذيب ، وفي كل ذلك يبدون اقوياء عنيفين ، شاعرين بقوتهم وذاتيتهم ، مناظرين عن عقائدهم وتقاليدهم وتراث آبائهم ، وعن ماظنوه مصالح لهم ستضيع ، ومرا كز ستهدم ، وامتيازات ستفقد ، وحرمة ستزول نضالًا قويًا عنيفًا فيه من قوة الجدل والداد والعتاد ، وتنوع الاساليب مايدل على أنهم كانوا على جانب غير يسير من العقل والذكاء والفظنة والذهاء والادراك والتدبير ، ولم يبالوا بما كان ينذرهم به بلسان القرآن من عذاب الدنيا والآخرة ، بل كانوا يقابلون هذا بالتكذيب تارة والسخرية تارة والتجدي تارة كما تمثله هذه الآيات :

١ - وإذا تتلى عليهم آياتنا قلوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذا قلوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آتنا بعذاب أليم الانفال ٣١ - ٣٢

٢ - وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قلوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين سبأ ٤٣

- ٥ -

والآن نأتي الى ايراد شيء من الآيات المكية التي تصور مواقف المشاقة والمعارضة التي وقفها كفار مكة وخاصة كبرائها وزعمائها ونابهاؤها وتابعيهم فيها عامتهم .

ولم تر ضرورة للشرح والتنبية لأنها قوية الوضوح والدلالة كما لم تر ضرورة الى تصنيفها حسب المواقف لأن هذا إنما يتصل بالسيرة النبوية (١) في حين أننا بسبيل عرض ما فيه دلالة على قوة عقل وشمدة مكر ودهاء ، ونحن على يقين تام من ان الذي يتعمن فيها يلحج ما اردنا التدايل عليه بصورة بارزة .

ونحب ان نلفت النظر اولاً الى أننا لم نسردها إلا القليل من الآيات وأنف في القرآن شيئاً كثيراً من الآيات التي هي بسبيل المعارضة والمشاقة ، ولا بد من تلاوة القرآن تلاوة إمعان وتدبر يقف القارئ على هذه الصفحة الرائعة من الخصومة وقوة اللدد في مناسباتها وسياقها . وثانياً الى أننا لم نورد شيئاً من الآيات التي فيها حكاية عقائد العرب وافكارهم الدينية والجدل حولها تاركين ذلك للباب الرابع :

١- ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فامسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا الا سحر مبين . وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا يُنظرون . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون . ولقد استهزئ برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون .

الانعام ٧-١٠

٢- ومنهم من يستمع اليك جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك مجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين .

الانعام ٢٥

٣- قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كُذبت رُسُل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل للكلمات الله واتخذ جاعك من نبي المرسلين . وإن كانت كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغني نفقاً في الأرض أو سماء في السماء فتأتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين .

الانعام ٣٣-٣٥

٤- وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل . لكل نبأ مستقر

(١) سيصدر بعد هذا كتاب فصول في السيرة النبوية على نمطه ان شاء الله .

وسوف تعلمون . وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين .
الانعام ٦٦ - ٦٨

٥ - ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى اليّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثلها أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون .
الانعام ٩٣

٦ - وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الأئس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ...
الانعام ١١٢

٧ - تسلك في هذه السلسلة آيات الانعام ١٣٣ - ١٢٤ التي نقلناها قبل قليل .

٨ - وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا انت بقرآن غير

هذا أو بدله ...
يونس ١٥

٩ - فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك أو ضائق به صدرك أن يقولوا لولا

أنزل عليه كتاب أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ...

هود ١٢

١٠ - ولو أن قرأنا سيرت به الجبال أو قطعتم به الارض أو كلمهم به الموتى (١)

بل لله الأمر جميعاً أفلم يئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا

يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد

الله إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمايت الذين كفروا

ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ...
الرعد ٣١ - ٣٢

١١ - وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه

الجبال ...
ابراهيم ٤٦

١٢ - إلهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون .

(١) الجواب مضمرة تقديره لما آمنوا

لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يجب المستكبرين . و إذا قيل لهم
ما ذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين . ايحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن
أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ... النحل ٢٢ - ٢٥

١٣ - وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا
آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا
البلاغ المبين ... النحل ٣٥

١٤ - نحن اعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول
الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا
فلا يستطيعون سبيلاً . وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً .
قل كونوا حجارة او حديداً او خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا
قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى ان
يكون قريباً ... الأسرء ٤٧ - ٥١

١٥ - وإن كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذاً
لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً ...

الأسرء ٧٣ - ٧٤

١٦ - وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك
جنة من نخيل وعذب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت
علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى
في السماء وان نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل
كنت إلا بشراً رسولا ... الأسرء ٩٠ - ٩٣

١٧ - ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر
شيئاً جدلاً . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن
تأتيهم سنة الأولين او يأتيهم العذاب قبلاً . وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين
ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما انذروا هزواً ...
الكهف ٥٤ - ٥٦

١٨ — وقال الذين كفروا ان هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون
فقد جاؤوا ظالمًا وزورًا . وقالوا أساطير الاولين اكتبنا في تولى عليه بكرة
وأذيلا ... الفرقان ٤ — ٥

٢٩ — وقال الرسول يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورًا . وكذلك
جعلنا لكل نبي عدوًّا من المجرمين وكفى بربك هاديًا ونصيرًا . وقال الذين كفروا
لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ...

الفرقان ٣٠ — ٣٢

٣٠ — وإذا راوك إن اتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا ...

الفرقان ٤١

٢١ — وقالوا إن تتبع الهدى معك تخطف من أرضنا ... القصص ٥٧

٢٢ — ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم
ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تنبى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم
يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم ... لقمان ٦ — ٧

٢٣ — وقال الذين كفروا اهل ندادكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق
أنكم افي خلق جديد أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة
في المذاب والضلال البعيد ... سبأ ٧ — ٨

٢٤ — وقال الذين استضعفوا الذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذا
تأمرنا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ... سبأ ٣٣

٢٥ — وأقسموا بالله جهد أيمانهم أن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى
الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفوراً . استكباراً في الارض ومكر السيء ...
فاطر ٤٢ — ٤٣

٢٦ — إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم إن في صدورهم
إلا كبر ما هم ببالغيه ... غافر ٥٦

٢٧ — وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أم يقسمون
زرحة ربك . الزخرف ٣١ — ٣٢

٢٨ - ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا أءهنتنا خير

أم هو ما ضربوه لك الا جدلاً بل هم قوم خصمون . . . الزخرف ٥٦ - ٥٧

٢٩ - كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض

أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا فلو بنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن

بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون . . . فصلت ٣ - ٧

٣٠ - وقال الذين كفروا الا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون

فصلت ٢٦

٣١ - ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن

لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . واذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا أولئك لهم

عذاب مهين . . . الحاشية ٨ - ٩

٣٢ - فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نترصد

به ريب المنون . قل ترصدوا فاني معكم من المترصدين . أم تأمرهم احلاءهم بهذا ام

هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . الطور ٢٩ - ٣٣

٣٣ - فلا تطع المكذبين . وددوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف

مهين . همار مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زعيم . أن كان ذا

مال وبنين . اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . القلم ٨ - ٩

٣٤ - وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لاسمعوا الذكر ويقولون

انه لمجنون . وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لاسمعوا الذكر ويقولون

انه لمجنون . انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس

وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر .

المدثر ١٨ - ٢٥

٣٥ - إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . واذا مروا بهم

يتغامزون . وإذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون .

المطففين ٢٩ - ٣٢

ولا يستكبرن القاريء الآيات التي تقلبناها ، فهي مازالت قليلة جداً بالنسبة

لأمثالها في القرآن وقد قصدنا إعطاء صور عديدة ومتنوعة لأساليب الجدل والمكر والتعجيز والاحراج، والسخرية واللاجاج والنكاية والاستكبار والصد والاعراض، والدد في الخصومة ليلمس في ذلك ما نوهنا به من قوة المدارك والعقول ، وحدة الذكاء والبصر في اساليب الجدل والخصومة واللاجاج .

ونلفت النظر خاصة الى بعض الصفات التي وصفتهم بها بعض الآيات من انهم كانوا قوماً خصمين ، وانهم كانوا مبينين في الخصومة ، وانهم كانوا شديدي المكر وانهم كانوا يعلمون ، وانهم كانوا أصحاب أحلام وعقول ؛ ثم الى ما أشارت اليه بعض الآيات وله امثال كثيرة اخرى من ما كان احياناً من اثر مواقفهم هذه في نفس النبي (ص) من أزمات مع ما تحلى به من اخلاق كريمة وصدر واسع ، وعلم بحالات النفوس والقاوب ، وقدرة على الكظم والعتو ، ومداراة الناس ومخاطبتهم حسب عقولهم .

- ٦ -

أما العهد المدني ، فانه ما لبث أن صار عهد قوة ومنعة للنبي (ص) والمسلمين ؛ ولذلك اضطر المشاقق والمعارضون إلى الاتساح بثوب النفاق ، والقيام بدورهم بالدهس والختل والمكر والتبذير والمؤامرات السرية والغمز واللمز وايغار الصدر والتبسيط في الفرض المواثية والمواقف المساعدة.

ومها يكن أمر فان موقفهم لم يكن أقل دلالة على قوة العقل والنفس والكيده والدهاء من مشاقق العهد المكي ومعارضيه إن لم يكن اقوي ؛ فمشاققة أصحاب القوة والسلطان تنطوي في احوال كثيرة على جراءة وقوة هممة ، وسعة حيلة ودهاء لما يرافقها من التعرض للخطر والأذى ؛ ولذلك فان موقف المشاقق والمعارضين في العهد المدني يصح أن يعد كذلك مقياساً للقوي العقلية في مدينة كبرى من مدن الحجاز في عصر النبي (ص) وبيئته ومظهرها لها ، وبالتالي يصح أن يكون دعامة لما تدل عليه مواقف المشاققة والمعارضة من قوي عقلية في عصر النبي (ص) وبيئته بوجه عام وخاصة في المدن الحجازية .

والآن نورد شيئاً من الآيات المكية التي تمثل مواقف المنافقين ، وسيلضح

القاريء فيها جرأة وقوة ، وخبثاً ومكراً سواء في رباؤهم وختالهم ومؤامراتهم أم في توليهم الكفار واليهود، أم في جرأة في الأقوال والأفعال في بعض المواقف المخرجة . وقد احتوت الآيات لهذه الأسباب حملة شديدة عليهم وفضائح لهم يتلو بعضها بعضاً ، ودعوة إلى الوقوف منهم موقف العنف والصرامة والحزم ، وهو ما لم يكن في الآيات المكية بالنسبة للمشاقين في العهد المكي حيث اكتفت الآيات بالتسفيه والإنذار والتنديد . وطبيعي أن هذا متنسق مع طبيعة كل من العبدین ، وحالة النبي (ص) والمسلمين فيها :

١ — ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آتوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . البقرة ٨ — ١٤

٢ — ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنيل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وابتأس المهاد ... البقرة ٢٠٤ — ٢٠٦

٣ — وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لا تبعدناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لأخوانهم وقعدوا لو اطاعونا ما قتلوا قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ... آل عمران ١٦٦ — ١٦٨

٤ — ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً .

وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك
صدوداً... النساء ٦٠ - ٦١

٥ - وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قل قد انعم الله علي إذ لم أكن
معهم شهيداً... النساء ٧٢

٦ - إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن
الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً. بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً. الذين يتخذون
الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإف العزة لله جميعاً. وقد
نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهنأ بها فلا تقعدوا معهم
حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في
جهنم جميعاً. الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن
كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم
القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً... النساء ١٣٧ - ١٤١

٧ - لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولا وضعوا فيكم لعلهم يفتنوا
ويفسدوا سمعهم والله عليم بالظالمين. لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور
حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا
في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين. إن تصيبك حسنة تسؤم وإن تصيبك
مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون... التوبة ٤٧-٥٠

٨ - ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم وأكثهم قوم يفرقون... التوبة ٥٦

٩ - ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها

إذا هم يسخطون... التوبة ٥٨

١٠ - ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن
بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة الذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب
اليم. يخلفون بالله إنكم أيرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين...
التوبة ٦١-٦٢

١١ - يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا

إن الله مخرج ما تحذرون (١) . وامن سألتم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون
التوبة ٦٤-٦٥

١٢ — المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون التوبة ٦٧

١٣ — ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون
التوبة ٧٥-٧٦

١٤ — الذين يلعنون الموطوءين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم
التوبة ٧٩

١٥ — وإذا ما أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذناك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين
التوبة ٨٦

١٦ — والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون
التوبة ١٠٧

١٧ — وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من احد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون
التوبة ١٢٧

١٨ — وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا هادوا الله من قبل لا يولون الأعداء وكان عهد الله مسئلاً الاحزاب ١٢-١٥

١٩ — قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً . أشح علىكم فإذا جاء الخوف رأيتم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشح على الخير

(١) كانوا يتفكحون في مجالسهم قائلين الآن ينزل فينا على النبي (ص) سورة

في معرض الاستهزاء .

او ائناك لم يؤمنوا

الاحزاب ١٨ - ١٩

٢٠ - ان لم ينه المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة

لنغريناك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا . ملءنن اين ما ثقفوا اخذو وقتلوا

تقتيلا

الاحزاب ٦٠ - ٦١

٢١ - ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون

بالأشتم والمدوان ومصيبة الرسول واذ جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في

أنفسهم لولا يعذبنا الله (١) بما نقول حسبهم جنتهم يصلونها فبئس المصير المجادلة ٨

٢٢ - اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله

والله يشهد ان المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم

ساء ما كانوا يعملون

المنافقون ١ - ٢

٢٣ - هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله

خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون ان رجعتنا الى المدينة

ليخرجننا الاغز منها الاذل والله العزة لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين

لا يعلمون

المنافقون ٧ - ٨

وهذه الآيات ليست كل ما ورد في مسور . مواقف المنافقين ، ولكنها تساعد على

مانظن على اقتباس الصور التي أردناها ، وتبين مقدار ما كان فيهم من حيوية ونشاط

وحدة ذهن وقوة عقل وجلد ودعاء .

(١) من قبل الاستهزاء .